الكتاب دعامة الحياة

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره الشريف)

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

تهميش:
مركز الجواد للتحقيق والنشر
قم المقدسة

كلمة الناشر

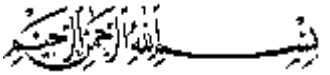

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد، فمنذ اللحظة الأُولى التي نزل فيها روح القدس على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم دعاه إلى القراءة فقال عزّ من قائل: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربّك الأكرم﴾[1].

وليس ذلك فحسب، وإنّما جعل الشارع المقدّس لطلب العلم ونشره منزلة خاصّة في أحاديثه، الأمر الذي يدلّ على قداسة العلم وشرافته في نظر الشريعة الإسلامية التي جاءت لتخرج الناس من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية.

وقد بقي الشارع المقدّس يؤكّد بشكل حثيث على تحصيل العلم ونشره بين الناس الذين عاشوا أعواماً طويلة في متاهات الجهل الطويلة التي لا أوّل لها ولا آخر.

ومن أهم ما أكّد عليه الإسلام في دعواه إلى نشر العلم هو الكتاب والكتابة وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[2]. وكذا قوله عزّوجلّ: ﴿اقرأ وربّك الأكرم ۞ الذي علّم بالقلم﴾.

من جانب آخر فإنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام كانوا يؤكّدون في رواياتهم الشريفة على حفظ الكتب والكتابة، بل إنّ بعضهم كتب شخصيّاً كما هو الحال بالنسبة للصدّيقة الزهراء عليها السلام والإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي جمع تفسير القرآن كلّه.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ السلف الصالح منذ عهد الأئمّة المعصومين عليهم السلام وبإيعاز منهم

---

(١) سورة العلق: ١ – ٣.

(٢) سورة القلم: ١.

كانوا يدوّنون الأحاديث ويدقّقون في الروايات، بل ويكتبون التفاسير والمطالب الفقهية التي كانوا يتلقّونها من أئمّتهم عليهم السلام.

وعلى هذا النهج القويم سار علماؤنا الأعلام فقدّموا الغالي والنفيس من أجل حفظ التراث الإسلامي العريق الذي أوصلته إليهم الأجيال السالفة بسفك الدماء وبذل المهج.

ومن العلماء الأعلام الذين صرفوا عمرهم في الكتابة والتأليف هو سلطان المؤلّفين آية الله العظمى السيّد محمّد الحسيني الشيرازي قدس سره ذلك المرجع العظيم الذي خدم المسلمين بمؤلّفاته القيّمة خدمة عظيمة.

فقد بلغت مؤلّفاته القيّمة الألف والثلاثمائة كتاب وكراس وفي مختلف المجالات، فضلاً عن تشويقاته المستمرّة للمسلمين على أن يحملوا القلم ويدوّنوا الحقائق العلمية التي تخدم المجتمعات وتوعيها من الجهل.

وما هذا الكتاب الذي بين يديك أيّها القارئ الكريم إلاّ كشاهد بسيط على الاهتمام الطائل الذي أولاه المرجع الراحل قدس سره بالكتاب، حيث كشف فيه عن أسباب التأليف وفوائده وأهميّة الكتب التوعوية خاتماً كتابه بالمهمّة الملقاة على كل المسلمين إزاء الكتاب، فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً.

مركز الجواد للتحقيق والنشر

قم المقدسة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إنّ الكتاب هو دعامة الحياة، ولذا فقد اهتم الغربيون ومن إليهم به أكبر اهتمام، بخلاف المسلمين ـ اليوم ـ تماماً، ففي السنة الماضية طبعت ونشرت إسرائيل البالغ عدد نفوسها (أربعة ملايين ونصف) أربعة آلاف وخمسمائة عنوان، أي لكل مليون ألف عنوان، بينما طبعت البلاد العربية ونفوسها ما يقارب ثلاثمائة مليون، ستة آلاف عنوان أي كل ألف كتاب لخمسين مليوناً [٣]، وذلك لعدم اهتمام المسلمين بالكتاب، بل ذكرت بعض الصحف أنّ (٦٥) مليون إنسان عربي لا يعرفون القراءة والكتابة.

وقد تجاوز عدد الصحف في إسرائيل على قلّة عدد نفوسهم الصحف في البلاد العربية على كثرة عدد الشعوب العربية[٤]، ونقلت بعض صحف إيران، أنّ كل فرد إيراني يقرأ في اليوم ثلاثة ثوان فقط، بينما يقرأ الفرد الياباني كل يوم ساعتين ونصف.

وفي الوقت الذي تجد أنّ في كل ألف بيت مسلم لا توجد حتى مكتبة واحدة، وفي العراق الذي يعدّ مهد التشيّع والحضارة لا توجد مكتبة واحدة ذات مليون كتاب، تجد أنّ في الكنجرس الأمريكي بلغ عدد كتب مكتبتها (١٢٠) مليون كتاب.

---

(٣) فقد جاء في مجلة (النبأ) العدد ٢٣ ـ ٢٤ سنة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م : إنّ إسرائيل تنشر من الكتب عدداً يماثل كل ما ينشره العالم العربي مجتمعاً، مع العلم أنّ سكّان إسرائيل خمسة ملايين فقط والعرب ٢٥٠مليون إنسان.

(٤) نقل أنّ نسبة انتشار الصحف لكل ألف من السكّان في الجزائر ٤٦ وفي اليمن ١٧ وفي سوريا ١٨ وفي مصر ٦٤ وفي السعودية ٥٤ وفي إسرائيل ٨١ . العربي العدد ٤٨١ ص٧٧ ديسمبر ١٩٩٨م.

وقد فتحت شخصياً في كربلاء المقدّسة (١٥٠) مكتبة للبيع والمطالعة أغلقتها جميعها حكومة البعث وصادرت كل كتبها، كما أغلقت وصادرت سبعين مكتبة بيع افتتحناها في مختلف البلاد العراقية فرعاً لدار نشر القرآن الحكيم في كربلاء المقدسة التي صودرت كتبها أيضاً [٥].

وعلى كل، فإنّ الحكومات في بلاد الإسلام تحارب الكتب، وحيث إنه لا توجد أحزاب حرّة ولا تعددية ولا حريات، استطاعت الحكومات منع الشعب من الكتب التي يريدها، بل جعلوا الرقابة على طبع الكتب ونشرها، وقد شكّلت بعضها جماعات ـ كما في الباكستان ـ لقتل أهل العلم باسم: (جماعة الصحابة)، كما لخّص أحد الحكّام القرآن مثل: (أتاتورك)[٦]، وقام أحدهم بحذف لفظة: ﴿قل﴾ في القرآن بحجّة إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد توفّي، ناهيك عن حذف عبد الناصر[٧] الآيات المربوطة بإسرائيل مدّعياً أنّها تمدحهم، نسأل الله أن يهدي المسلمين لما فيه رضاه، وأن يوفقنا للاهتمام بنشر الثقافة الإسلامية عبر الكتاب وغيره فإنه دعامة الحياة.

قم المقدسة

محمّد الشيرازي

---

(٥) راجع كتاب (كفاحنا) و(عشت في كربلاء) حيث أشار المؤلّف دام عزه إلى طائفة من مشاريعه في العراق.

(٦) مصطفى أتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨م) مؤسس الجمهورية التركية وأوّل رئيس لها، قام بنشر المفاسد في بلاده وغيّر كتابة اللغة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني.

(٧) جمال عبد الناصر (١٩١٨ ـ ١٩٧٠م) رجل دولة مصري، قلب الحكم على الملك فاروق (١٩٨٢م) رئيس الجمهورية عام (١٩٥٨م) حتّى وفاته.

الكتاب في القرآن الكريم

إنّ كل من يقرأ آيات القرآن الكريم ويتمعّن في دقائقها ومواعظها الكثيرة يجد أنّ هناك أُموراً أساسيّة قد أُشير إليها بشكل مستمر، منها مسألة الكتاب ودوره الأساسي في حركة الرسالات السماوية، ومدى حجّيته في الكثير من المواضع.

فقد ذكرت مفردة (الكتاب) في القرآن الكريم ما يقارب ٢٥٠ مرّة[٨]، كما أنه جاءت مفردة ﴿كَتب﴾ و﴿كُتب﴾ أكثر من عشرين مرة، ناهيك عن سائر اشتقاقات مادة (كَتَبَ) التي منها:

﴿اكتب﴾ و﴿اكتتبها﴾ و﴿تكتبوه﴾ و﴿تكتبوها﴾ و﴿ستكتب﴾ و﴿سنكتب﴾ و﴿فاكتبنا﴾ و﴿فاكتبوه﴾ و﴿فسأكتبها﴾ و﴿فكاتبوهم﴾ و﴿فليكتب﴾ و﴿كاتب﴾ و﴿كاتباً﴾ و﴿كاتبون﴾ و﴿كاتبين﴾ و﴿كتبتْ﴾ و﴿كتبتَ﴾ و﴿كتبنا﴾ و﴿كتبناها﴾ و﴿كتبه﴾ و﴿للكتب﴾ و﴿ليكتب﴾ و﴿مكتوباً﴾ و﴿نكتب﴾ و﴿يَكتب﴾ و﴿يُكتب﴾ و﴿يكتبون﴾.

الأمر الذي يدلّ على تأكيد الشارع المقدّس على قضية الكتاب والكتابة.

معجزة الرسالات المختلفة

وممّا يدلّ على أهمية الكتاب في تاريخ الرسالات السماوية المختلفة هو أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأتون أقوامهم بالكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى، فقد قال نبي الله عيسى

(٨) مفردة (الكتاب) تشمل الألفاظ التالية الواردة في القرآن الكريم: ﴿الكتابَ﴾ ٨٠ مرة، ﴿الكتابِ﴾ ٨٣ مرة، ﴿الكتابُ﴾ ٨ مرات، و﴿كتابَ﴾ ٥ مرات، و﴿كتابِ﴾ ٧ مرات، و﴿كتابُ﴾ مرتين، ﴿كتابٍ﴾ ١٧ مرة، و﴿كتابٌ﴾ ١٩ مرة، و﴿كتاباً﴾ ١٢ مرة، و﴿كتابك﴾ مرة، و﴿كتابنا﴾ مرة، و﴿كتابه﴾ ٥ مرات، و﴿كتابها﴾ مرة، و﴿كتابهم﴾ مرة، و﴿كتابيَه﴾ مرة، و﴿لكتاب﴾ مرة. و﴿بالكتاب﴾ ٥ مرات، ﴿بكتاب﴾ ٣ مرات، ﴿بكتابكم﴾ مرة، ﴿بكتابي﴾ مرة.

عليه السلام عندما نطق في المهد: ﴿إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾[٩].

وقال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأُولى﴾[١٠].

وقال سبحانه: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾[١١].

وقال تعالى: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[١٢].

وقد اعتاد الناس على أن يأتيهم المبلّغون بكتب سماوية يستدّلون بها على صدقهم في دعوتهم، قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾[١٣].

حجّية الكتاب

وفي الآيات القرآنية المباركة أنّ من الحجج المهمة التي يقيمها الباري تعالى على عباده ويستدلّ بها عليهم هو الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[١٤].

وقد فسّر الشيخ الطبرسي قدس سره في تفسيره (مجمع البيان) الآيتين فقال: «ونخرج له يوم القيامة كتاباً» وهو ما كتبه الحفظة عليهم من أعمالهم «يلقاه» أي: يرى ذلك الكتاب «منشوراً» أي: مفتوحاً معروضاً عليه ليقرأه، ويعلم ما فيه ... «اقرأ كتابك» .. قال قتادة: يقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

وروى جابر بن خالد بن نجيح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يذكر العبد جميع أعماله، وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا: ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها﴾[١٥].

---

(٩) سورة مريم: ٣٠.

(١٠) سورة القصص: ٤٣.

(١١) سورة مريم: ١٢.

(١٢) سورة النحل: ٦٤.

(١٣) سورة النساء: ١٥٣.

(١٤) سورة الإسراء: ١٣ – ١٤.

(١٥) سورة الكهف: ٤٩.

«كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» أي: محاسباً، وإنّما جعله محاسباً لنفسه، لأنه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلّها مكتوبة، ورأى جزاء أعماله مكتوباً بالعدل، لم ينقص عن ثوابه شيء، ولم يزد على عقابه شيء، أذعن عند ذلك وخضع، وتضرّع واعترف، ولم يتهيّأ له حجّة ولا إنكار، وظهر لأهل المحشر أنه تعالى لايظلم[١٦].

وقال الطبرسي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه كتاباً﴾[١٧]: أي وكل شيء من الأعمال بيّناه في اللوح المحفوظ، ومثله ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾[١٨] وقيل: معناه وكل شيء من أعمالهم حفظناه لنجازيهم به. ثمّ بيّن أنّ ذلك الإحصاء والحفظ، وقع بالكتابة، لأنّ الكتابة أبلغ في حفظ الشيء من الإحصاء، ويجوز أن يكون «كتاباً» حالاً مؤكّدة أي أحصيناه في حال كونه مكتوباً عليهم، والكتاب بمعنى المكتوب[١٩].

بل إنّ الله تعالى يقسم بالكتاب في سورة الطور حيث قال: ﴿والطور وكتاب مسطور﴾[٢٠] وهذا خير دليل على قداسة المقسوم به وحجّيته في نظر الشارع المقدّس وإن كان المراد من الكتاب في الآية هو القرآن الكريم.

وقال تعالى ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[٢١].

فمن كلام للشيخ الطبرسي قدس سره في تفسير الآية قال فيه: «وكتاب مسطور» أي مكتوب وهو الكتاب الذي كتبه الله لملائكته في السماء، يقرأون فيه ما كان وما يكون. وقيل: هو القرآن مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، وهو الرق المنشور. وقيل: هو صحائف الأعمال التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة، فمنهم آخذ كتابه بيمينه، ومنهم آخذ بشماله، وهذا كقوله ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾[٢٢]_[٢٣].

---

(١٦) راجع مجمع البيان: ج٦ ص٢٣٠ – ٢٣١.

(١٧) سورة النبأ: ٢٩.

(١٨) سورة يس: ١٢.

(١٩) مجمع البيان: ج١٠ ص٢٤٥.

(٢٠) سورة الطور: ١ – ٢.

(٢١) سورة القلم: ١.

(٢٢) سورة الإسراء: ١٣.

(٢٣) مجمع البيان: ج٩ ص٢٧١ – ٢٧٢.

وفي آية أُخرى يقرّ الباري تعالى حجّية الكتاب مقابل ادّعاءات الكافرين ويناشدهم بإتيان حجّتهم التي هي الكتاب فقال عزّ من قائل: ﴿أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾[٢٤] أي حجّة بيّنة على ما تقولون وتدّعون، وهذا كلّه إنكار في صورة الاستفهام «فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين» المعنى: فأتوا بكتابكم الذي لكم فيه الحجّة[٢٥].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة على أهمية الكتاب ودوره في حياة الإنسان.

الإسلام والحث على الكتابة

عندما بزغ نور الإسلام في أطراف الجزيرة العربية تغيّر الكثير من أُمور المجتمع الجاهلي الذي كان غارقاً في أوحال الضياع، فبعد أن كان الجهل مخيّماً على عقول الكثير من الناس تخرّج من نفس ذلك المجتمع الكثير من العلماء الذين حملوا رسالة الإسلام وأوصلوا مبادئه إلى أقصى أطراف العالم.

بل إنّ نفس المجتمع الجاهلي الذي لم يكن يتجاوز عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة فيه عدد الأصابع أصبح من خيرة المجتمعات في الثقافة والوعي، وهذا كلّه يعود إلى فضل الإسلام الحنيف الذي شوّق إلى تعلّم العلم ونشره.

ومن الأُمور المهمّة التي ينشر العلم من خلالها هي الكتابة التي شوّق الإسلام إليها بشدّة، ففي سورة القلم يقول تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[٢٦] وهذا خير دليل على التأكيد في الإسلام على الكتابة بل إنّ تسمية سورة القلم بهذا الاسم لها دلالة واضحة الاهتمام بالكتابة.

والملفت للانتباه هو ما ورد في تفسير هذه الآية من روايات جميلة تدلّ على إنّ الباري تعالى هو أوّل من أمر القلم بالكتابة.

---

(٢٤) سورة الصافات: ١٥٦ – ١٥٧.

(٢٥) مجمع البيان: ج٨ ص٣٣٥.

(٢٦) سورة القلم: ١.

فعن أبي عبد الله عليه السلام أنه لما سئل عن تفسير الآية قال: «أمّا ﴿ن﴾ فكان نهراً في الجنّة أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من العسل، قال الله عزّوجلّ له: كن مدداً فكان مداداً، ثمّ أخذ شجرة فغرسها بيده ثمّ قال: واليد القوّة وليس بحيث تذهب إليه المشبّهة ثمّ قال لها: كوني قلماً ثمّ قال له: اكتب، فقال له: يا ربّ وما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة، ففعل ذلك ثمّ ختم عليه وقال: لا تنطقنّ إلى يوم الوقت المعلوم»[٢٧].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أوّل ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة»[٢٨].

وعن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن ﴿ن والقلم﴾ قال: «إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال لها الخلد، ثمّ قال لنهر في الجنّة: كن مداداً فجمد النهر وكانت أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد، ثمّ قال للقلم: اكتب، قال: يا ربّ ما اكتب؟ قال: اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت، ثمّ طواه فجعله في ركن العرش ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق بعد ولا ينطق أبداً، فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلّها أولستم عرباً؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه: انسخ ذلك الكتاب، أوليس إنّما ينسخ من كتاب آخر من الأصل، وهو قوله: ﴿إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[٢٩]»[٣٠].

---

(٢٧) علل الشرائع: باب١٤٢ ص٤٠٢ ح٢.

(٢٨) تفسير القمّي: ج٢ ص١٩٨.

(٢٩) سورة الجاثية: ٢٩.

(٣٠) تفسير القمّي: ج٢ ص٣٧٩.

الكتاب في الأخبار الشريفة

كما أنّ هناك روايات عديدة تشير إلى أهمية الكتابة وحفظ الكتب وردت عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام الذين كانوا يوصون أصحابهم وشيعتهم بالكتابة والاحتفاظ بالكتب.

منها: ما عن المفضّل بن عمر قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «اكتب وبثّ علمك في إخوانك، فإن متّ فأورث كتبك بنيك فإنّه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلاّ بكتبهم»(٣١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «القلب يتّكل على الكتابة»(٣٢).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «اكتبوا فإنّكم لا تحفظون حتّى تكتبوا»(٣٣).

وعن عبيد بن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «احتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها»(٣٤).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من مات وميراثه الدفاتر والمحابر وجبت له الجنّة»(٣٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قيّدوا العلم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته»(٣٦).

وفي البحار أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أظهر لليهود العديد من المعاجز الدالّة على نبوّته وصدقه في مدّعاه ثمّ قال لهم وللمسلمين: أوقفتكم على ما أخبرتكم به؟

قالوا: بلى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: يا معشر المسلمين واليهود اكتبوا بما سمعتم.

---

(٣١) الكافي: ج١ ص٥٣، باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسّك بالكتب ح١١.

(٣٢) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٨١ ح٣٣٢٦٠.

(٣٣) الكافي: ج١ ص٥٢ ح٩.

(٣٤) مشكاة الأنوار: ص١٤٢ الفصل التاسع في الحثّ على الكتابة والتكاتب.

(٣٥) إرشاد القلوب: ج١ ص١٧٦.

(٣٦) منية المريد: ص٢٦٧.

فقالوا: يا رسول الله قد سمعنا ووعينا ولا ننسى.

فقال رسول الله ﷺ: الكتابة أذكر لكم[٣٧].

وعن رجل من قريش من أهل مكّة قال: قال سفيان الثوري: اذهب بنا إلى جعفر بن محمد عليه السلام، قال: فذهبت معه إليه فوجدناه قد ركب دابته، فقال له سفيان: يا أبا عبدالله! حدّثنا بحديث خطبة رسول الله ﷺ في مسجد الخيف قال: «دعني حتى أذهب في حاجتي فإنّي قد ركبت، فإذا جئت حدّثتك»، فقال: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لما حدّثتني، قال: فنزل، فقال له سفيان: مر لي بدواة وقرطاس حتّى أثبته، فدعا به ... الخ[٣٨].

وعن الإمام الحسن عليه السلام أنه دعا بنيه وبني أخيه فقال: «إنّكم صغار قوم ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين فتعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته»[٣٩].

ونقل العلاّمة المجلسي قدس سره في معنى الحديث: «من حفظ على أُمّتي أربعين حديثاً في أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً»[٤٠] فقال: والحقّ أنّ للحفظ مراتب يختلف الثواب بحسبها، فأحدها حفظ لفظها سواء كان في الخاطر أو في الدفاتر وتصحيح لفظها واستجازتها واجازتها وروايتها[٤١].

الدعوة إلى الكتابة

على الرغم من أنّ رسول الله ﷺ لم يرد إلينا أنه قد كتب وذلك لفلسفة مذكورة في محلها. نعم إنه ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة. إلاّ أنه كان يؤكّد بشدّة أن يتعلّم المسلمون القراءة والكتابة، بحيث أنه كان يشترط على أُسراء المشركين تعليم المسلمين القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحهم.

وقد طلب رسول الله ﷺ في أواخر حياته الشريفة أن يأتوه بدواة وكتف ليكتب لهم

---

(٣٧) بحار الأنوار: ج١٧ ص٣٤٥.

(٣٨) الكافي: ج١ ص٤٠٣ ح٢.

(٣٩) بحار الأنوار: ج٢ ص١٥٢ باب فضل كتابة الحديث وروايته ح٣٧.

(٤٠) انظر وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٩٤ ح٣٣٣٠٥.

(٤١) بحار الأنوار: ج٢ ص١٥٧.

كتاباً لن يضلوا بعده أبداً [٤٢] ولكن البعض حال دون ذلك، في قصة مفصلة رواها الفريقان.

وفي التاريخ أنّ الأسرى المشركين ممّن لا مال لهم كان الرسول ﷺ يقبل منهم أن يعلّموا عشرة من غلمان المسلمين مقابل تخلية سبيلهم، وعلى أثر هذا الأمر تعلّم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار. بل إنه ﷺ دعا في أحاديثه إلى الكتابة، ومنها أنه ﷺ قال: «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً فيما بينه وبين النار، وأعطاه الله تبارك وتعالى بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرّات، وما من مؤمن يقعد ساعة عند العالم إلاّ ناداه ربّه عزّوجلّ جلست إلى حبيبي فوعزّتي وجلالي لأسكنتك الجنّة معه ولا أُبالي»[٤٣].

وقال ﷺ: «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء».

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجّح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٤٤].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ عن ثلاث: ولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به، وصدقة جارية»[٤٥].

وقال ﷺ: «قيّدوا العلم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته»[٤٦].

وروي أنّ رجلاً من الأنصار كان يجلس عند النبي ﷺ فيسمع منه ﷺ الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: استعن بيمينك وأومأ بيده أي خط»[٤٧].

---

(٤٢) انظر بحار الأنوار: ج١٦ ص١٣٤، والبحار: ج٢٢ ص٤٦٨ وص ٤٧٢ باب وصيته ﷺ عند قرب وفاته، والإرشاد: ج١ ص١٨٤، وإعلام الورى: ص١٣٥، وشرح نهج البلاغة: ج١٠ ص٢١٩، وج١٢ ص٨٧، وكشف اليقين: ص٤٧٢، و...

(٤٣) وسائل الشيعة: ج٢٧ باب وجوب العمل بأحاديث النبي ﷺ ص٩٥ ح٣٣٣٠٨.

(٤٤) الأمالي للطوسي: ص٥٢١، المجلس: ١٨، ح١١٤٩.

(٤٥) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٢٣٠ باب استحباب إقامة السنن الحسنة ح١٣٩٦٠.

(٤٦) بحار الأنوار: ج٢ ص١٥١ باب فضل كتابة الحديث وروايته ح٣٥.

(٤٧) بحار الأنوار: ج٢ ص١٥٢ باب فضل كتابة الحديث وروايته ح٣٦.

وعنه ﷺ أنه قال لبعض كُتَّابه: «ألق الدواة وحرِّف القلم وانصب الباء وفرِّق السِّين ولا تُعوِرِ الميم وحَسِّنِ اللهَ ومُدَّ الرحمن وجَوِّد الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنّه أذكرُ لك»[٤٨].

حقائق عن مداد العلماء

ربما يستغرب البعض من الأحاديث التي تنص على أرجحية مداد العلماء على دماء الشهداء يوم القيامة، قال ﷺ: «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء».

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّوجلّ الناس في صعيد واحد ووضعت الموازين فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجّح مداد العلماء على دماء الشهداء»[٤٩].

بل إنّ الكثير منهم يتساءلون قائلين: كيف يكون مداد العلماء أرجح من دماء الشهداء؟

وهل هناك شيء أفضل من الشهادة؟

ولماذا يرجّح المداد على الدماء؟

الجواب: إنّ السبب واضح، ذلك لأنّ القلم واللسان هما اللذان يسبّبان تحرّك الناس نحو الجهاد في ميادين القتال، إضافة إلى أنّهما يحفظان الشريعة ويحافظان على مكتسبات الجهاد في المعارك.

فإنّ مداد العلماء أمثال: الصدوق[٥٠]..

والمفيد[٥١]..

---

(٤٨) مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٧١ ب٤٥ ح٤٩٧٢.

(٤٩) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٩٨ ح٥٨٥٣.

(٥٠) هو محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، كنيته أبو جعفر، ولد ببركة دعاء الإمام الحجّة (عجل الله فرجه) وتوفّي عام ٣٨١هـ . ألّف الكثير من المؤلّفات القيّمة وعلى رأسها كتابه الشريف (من لا يحضره الفقيه) وكتاب (مدينة العلم) الذي فُقد من بعده وحرم المسلمون من الاستفادة منه.

(٥١) هو أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان بن عبد السلام العكبري الملقّب بالشيخ المفيد، من أجلّ مشايخ الشيعة ورئيسهم وأستاذهم، وفضله أشهر من أن يوصف، انتهت رئاسة الإمامية إليه

والكليني[٥٢]..

والمجلسي[٥٣]..

والمرتضى[٥٤]..

والعلاّمة[٥٥]..

في وقته، ولد سنة (٣٣٦هـ) وتوفّي (٤١٣هـ) دفن في داره ونقل إلى مقابر قريش بالقرب من جانب رجلي الإمام الجواد عليه السلام، له تصانيف عديدة منها: الرسالة المقنعة، والأركان في دعائم الدين، والإيضاح في الإمامة، والإرشاد، والإفصاح، والعيون والمحاسن، يقول عنه الشيخ الطوسي رحمه الله: وكان يوم وفاته يوماً لم يُر أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف له ومن المؤالف. راجع روضات الجنّات: ج٦ ص١٥٣ بالرقم٥٧٦.

(٥٢) هو محمّد بن يعقوب الكليني الملقّب بثقة الإسلام والمكنّى بأبي جعفر، ألّف كتابه الشريف (الكافي) خلال ٢٠ عاماً وحكي عن ابن الأثير أنه قال في كتابه جامع الأُصول: أنّ من خواص الشيعة أنه يظهر لهم على رأس المائة سنة هجرية مجدّد لمذهبهم ففي رأس المائة الثانية كان الإمام الرضا عليه السلام وعلى رأس المائة الثالثة كان محمّد بن يعقوب الكليني. ويعتبر الكليني أوّل من بَوّبَ الأخبار، وقد توفّي ٣٢٩ أو ٣٢٨ وهي سنة تناثر النجوم إلى الأرض ودفن في بغداد في مقبرته في باب الكوفة.

(٥٣) هو الملاّ محمّد بن باقر بن الملاّ محمّد تقي بن مقصود علي المجلسي، ولد عام ١٠٣٧هـ، له العديد من المؤلّفات القيّمة وأشهرها كتابه الشريف (بحار الأنوار) الذي حفظ به تراث الشيعة من الضياع، وقد توفّي عام ١١١١هـ ودفن في أصفهان.

(٥٤) هو سيّد علماء الأمّة ومحيي آثار الأئمّة ذو المجدين أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام موسى الكاظم المشهور بالسيد المرتضى وبعلم الهدى، جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد، له تصانيف مشهورة منها: الشافي في الإمامة، وكتاب الطيف والخيال، وكتاب الغرر والدرر، وله ديوان شعر يزيد على عشرين ألف بيت، وهو أخ السيّد الشريف الرضي قدس سره. ولد سنة (٣٥٥هـ) وتوفّي سنة (٤٣٦هـ) ودفن في بيته. وقيل إنه خلّف بعد وفاته (٨٠ ألف مجلّداً) من مقروءاته ومصنّفاته ومحفوظاته، أنظر الكنى والألقاب: ج٢ ص٤٨٢ (علم الهدى).

(٥٥) الحسن ويقال الحسين بن يوسف بن علي بن المطهّر الحلّي ويعرف بالعلاّمة: من أئمّة الشيعة وأحد كبار العلماء نسبته إلى مدينة الحلّة في العراق وفيها مولده ومسكنه ومدفنه، له كتب كثيرة منها: تبصرة المتعلّمين في أحكام الدين، وتهذيب طريق الوصول إلى علم الأصول، والأحكام في

والمحقّق[٥٦]..

والشهيدين[٥٧].. وغيرهم..

هو الذي أوصل إلينا تعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام وقوانين الإسلام ودساتيره، وهو الذي أوصل إلينا أنباء غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده، وأنباء ثورة الإمام الحسين عليه السلام وإستشهاده، إنّ القلم والكتاب هو الذي حفظ لنا كل ذلك، وهو الذي أوصل الثقافة الإسلامية إلينا كاملة غير منقوصة.

معرفة الحلال والحرام، ومختلف الشيعة في أحكام الشريعة، وأنوار الملكوت في شرح الياقوت. انظر روضات الجنّات: ج٢ ص٢٦٨ بالرقم (١٩٨).

(٥٦) هو جعفر بن يحيى بن حسن بن سعيد الهذلي الملقّب بـ (نجم الدين والمحقّق) والمكنّى بأبي القاسم، ولد عام ٦٣٨هـ وتوفّي عام ٧٢٦هـ ونقل بعض أنّ وفاته عام ٦٧٦هـ، من تأليفاته القيّمة هو كتاب (شرائع الإسلام) الذي طرح فيه ١٢ ألف مسألة.

(٥٧) وهما الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي بن محمّد بن حامد العاملي الذي استشهد عام ٨٧٦هـ . والشيخ زين الدين نور الدين علي بن أحمد بن جمال الدين بن تقي الدين صالح وقد استشهد في عام ٩٧٥هـ أو ٩٧٦هـ وقد ترك بدنه ثلاثة أيّام ثمّ رموه في البحر.

الكتاب في تاريخ الشيعة

على أثر تأكيد أهل البيت عليهم السلام وحثّهم لشيعتهم بحفظ الكتب والكتابة المستمرّة فقد كان في كل ميدان من ميادين العلوم مؤلّفاً شيعياً سبق غيره من المسلمين بالكتابة.

فكتب الكثير من علماء الشيعة في مختلف العلوم ودوّنوا ما حفظوه وتعلّموه من الأئمّة الأطهار عليهم السلام الأمر الذي حفظ لهم التراث الشيعي.

ففي علم (أصول الفقه) تصدّى علماء الشيعة إلى التأليف قبل غيرهم، ودوّنوا العديد من المؤلّفات، فقد ألّف هشام بن الحكم(٥٨) في مباحث الألفاظ، ويونس(٥٩) بن عبد الرحمن مولى آل يقطين في التعادل والتراجيح.

وكذا الحال بالنسبة لسائر العلوم حيث ألّف أبو محمّد عبد الله بن جبلة الكناني في الرجال(٦٠)، وألّف إسماعيل بن مهران السكوني في الأخلاق بعنوان صفة المؤمن والفاجر(٦١)،

---

(٥٨) كان هشام يكنّى أبا محمّد وهو مولى بني شيبان كوفي وقد نزل بغداد ولقي الإمام الصادق عليه السلام والإمام الكاظم عليه السلام وله عنهما روايات كثيرة، وروي عنهما عليهما السلام فيه مدائح جليلة وكان ممّن فتق الكلام في الإمامة وهذّب المذهب بالنظر وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب.

(٥٩) كان وجهاً من وجوه الشيعة عظيم المنزلة وقد أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام في العلم والفتيا، وكان ممّن بذل له على الوقف مال جزيل فامتنع من أخذه وثبت على الحقّ.

(٦٠) عبدالله بن جبلة الكناني: عدّه الشيخ الطوسي (رضوان الله عليه) في رجاله من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، وقال النجاشي عنه: عبدالله بن جبلة بن حنان بن الحرّ الكناني أبو محمّد ثقة .. وكان فقيهاً ثقة مشهور له كتب منها: كتاب الرجال، كتاب الصفة في الغيبة، كتاب الصلاة، كتاب زكاة الفطرة، كتاب الطلاق، كتاب المواريث، كتاب النوادر.

(٦١) قال الشيخ الطوسي في الفهرست: إسماعيل بن مهران بن محمّد بن أبي نصر السكوني .. ثقة معتمد عليه، روى عن جماعة من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام ولقي الإمام الرضا عليه السلام وروى عنه وصنّف مصنّفات كثيرة.

وألّف أُبي بن كعب في فضائل القرآن[٦٢] وغيرهم الكثير من مؤلّفي الشيعة الذين استجابوا لوصايا أهل البيت عليهم السلام المنادية إلى التأليف فحفظوا لنا التراث الشيعي من الضياع[٦٣].

من فوائد الكتاب

لا يخفى أنّ للكتاب فوائد كثيرة نذكر بعضها:

نشر الفكر

١ـ نشر الفكر: فمن خلال الكتاب يستطيع الإنسان من نشر فكره وعقيدته ورأيه وإيصالها إلى الآخرين في مختلف أنحاء العالم خاصّة إذا لاحظنا سهولة انتشار الكتاب في العصور الأخيرة.

ولذا فقد اهتمّ أعداء الإسلام بنشر الكتاب وترويجه بينما تخلّف المسلمون اليوم وتخلّوا عن ذلك حتّى غزاهم العدو بأفكاره وعاداته بل وحتّى في ثقافته.

فقد نقلت بعض المجلاّت: أنّ الاتحاد السوفيتي طبع ووزّع في سنة واحدة، واحداً وعشرين ملياراً من الكتب، وكانت نفوس العالم آنذاك أربع مليارات.

كما أنه ترجم كتاب ماوتسي تونغ (الكتاب الأحمر) إلى أربعمائة لغة رغم عدم مرور حتّى نصف قرن على تاريخ انتشار (الماركسية المادّية).

وأذاع راديو الكيان الصهيوني قبل سنين أنّ الكتب التي وزّعت على الإسرائيليين ما يقارب خمسة عشر مليون كتاباً في سنة واحدة[٦٤] ومعنى ذلك أنّ كل إسرائيلي حصل على

---

(٦٢) أُبي بن كعب: عدّه الطوسي في رجاله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يكنّى أبا المنذر، شهد العقبة مع السبعين وكان يكتب الوحي، آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين سعيد بن زيد، وقال الطباطبائي: إنّه من الإثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر تقدّمه وجلوسه مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٦٣) راجع كتاب (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) للعلامة السيّد حسن الصدر حيث تطرّق قدّس سرّه إلى أسبقية الشيعة في التأليف والكتابة في مختلف العلوم وقد دحض بذلك بعض الإدّعاءات الخاوية الرامية للشيعة بأنّهم لا مصنّفات لهم وأنّهم تأخّروا عن غيرهم في التصنيف والتأليف.

(٦٤) هذا فضلاً عن البرامج الثقافية الأُخرى التي منها المجلات والصحف والأقلام وغيرها من وسائل الإعلام المستخدمة لإفساد الشعوب المسلمة.

ما يقارب خمسة كتب من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير، ناهيك إنّ الصهيونية تسيطر على أكثر من ألف جريدة خارج إسرائيل، بينها أُمّهات الجرائد العالمية، وذلك أحد أسباب تمكّنها من كسب الرأي العام الغربي بل والعالمي إلى جانبها رغم كونها غاصبة ومحتلة، مع أنّ نفوس اليهود لا يتجاوز العشرين مليون نسمة (أي نسبة ١٠% من المسلمين). أمّا نحن المسلمين، فبالرغم أنّ عددنا ألفي مليون[٦٥] وأنّنا أصحاب الحق الشرعي فضلاً عن كوننا مضطهدين محرومين مشرّدين، إلاّ أنّنا لا نحاول إيصال صوتنا إلى العالم بل لا نمتلك حتّى جريدة واحدة واسعة الانتشار تعرف في العالم رغم سعة أفكارنا ومظلوميتنا!

فإسرائيل تعطي لشعبها الفكر المنحرف الظالم، وتكرّس الجهود للمزيد من التسميم الفكري والثقافي، فلماذا لا نعمل في نشر الفكر الواعي لأجل ألفي مليون مسلم ونحن أصحاب حقّ؟

ولعلّ مما يدل على تراجع المسلمين عن مبادئهم أنّ القرآن الكريم رغم مرور زهاء خمسة عشر قرناً على نزوله على نبي الإسلام ﷺ لم تتجاوز ترجماته (٢٣٠) ترجمة! كما ذكره البعض.

حفظ التراث

٢: من فوائد الكتاب حفظ التراث، حيث إنّ الكتاب يحفظ التراث ويصونه من التحريف والتزييف، فاللازم على كل أمة أن تكتب تاريخها وتجاربها وما أشبه لكي تصل المعارف بأمانة للأجيال القادمة، والشواهد على ذلك كثيرة ومختلفة، فقد حفظت الكتب الأربعة[٦٦] أخبار الشيعة وأوصلتها لهم على مختلف طبقاتهم.

كما حفظ العلاّمة المجلسي والحرّ العاملي[٦٧] (قدس سرهما) بكتابيهما [٦٨] القيّمان

---

(٦٥) راجع كتاب (عندما يحكم الإسلام) للدكتور عبد الله النفيسي الصفحة الأخيرة.

(٦٦) الكافي، من لا يحضره الفقيه، الاستبصار ، تهذيب الأحكام.

(٦٧) هو الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي الجبعي المشهور بالحرّ العاملي، ولد سنة ١٠٢٣هـ وتوفّي سنة ١١٠٤هـ ودفن في إيوان المشهد الرضوي. خلّف ثمانية وعشرين مؤلّفاً كبيراً وسبعة وعشرين منظومة وحاشية، ومن مؤلّفاته وسائل الشيعة، إثبات الهداة، أمل الآمل.

(٦٨) بحار الأنوار، وسائل الشيعة.

التراث الشيعي من التلف والضياع...

ومن نعم الله تعالى وعنايته البالغة أنّ أمثال هؤلاء من علماء التشيّع وفّقوا لتدوين التراث وحفظه ولذا فإنّ لهؤلاء الأعلام الفضل في انتشار المذهب الشيعي ورواجه في العالم كما نراه اليوم.

الأجر والثواب

٣: من فوائد الكتاب الأجر العظيم، حيث ورد في الأخبار الشريفة أنّ الكتاب هو من الصدقات الجارية التي تعود منافعها على الإنسان بعد وفاته أيضاً، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا مات المؤمن انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٦٩].

مع صاحب المستدرك

والشواهد على ذلك كثيرة منها ما نقل في أحوال الحاج النوري[٧٠] صاحب كتاب (مستدرك الوسائل) أنّه رؤي يتمشّى على شطّ سامراء في حالة فرح وابتهاج، فسئل عن سبب فرحه؟

فقال: إنّي رأيت البارحة والدتي في قصر كبير من قصور الجنّة ولها أنهار وأشجار ونخيل، ولما رأتني والدتي استقبلتني بترحيب كبير، وقالت لي: إنّني بسببك معروفة في هذا العالم بـ «مادر آغا» أي والدة السيد العظيم، وإنّك لا تؤلّف كتاباً إلاّ وتأتيني الملائكة به في طبق من

---

(٦٩) بحار الأنوار: ج٢ ص٢٢ باب ثواب الهداية والتعليم ح٦٥.

(٧٠) هو الميرزا حسين بن الميرزا محمّد تقي بن الميرزا علي محمّد بن تقي النوري الطبرسي من أعاظم علماء الشيعة وكبار رجال الإسلام في هذا القرن، ولد في ١٨ شوال ١٢٥٤ في قرية (يالو) من قرى نور إحدى كور طبرستان ونشأ فيها يتيماً، له عدّة هجرات إلى العراق وحضر دروس كبار العلماء أمثال الشيخ الأنصاري حيث درس درسه أشهر قلائل ولازم المجدّد الشيرازي حتّى توفّي المجدّد، وقد توفّي النوري قدس سره ليلة الأربعاء لثلاث بقين من جمادى الثانية (١٣٢٠هـ) ودفن في مدينة كربلاء المقدّسة داخل الصحن الشريف وكان يوم وفاته مشهوداً حزن فيه عامّة الناس لا سيّما العلماء الأعلام.

نور، فأزداد احتراماً أكثر فأكثر.

رؤيا الإمام الحسين عليه السلام

وقد رأيت ذات مرّة في مدينة قم المقدّسة الإمام الحسين عليه السلام في المنام وكان جالساً في إيوانه الشريف وهو متّجه نحو القبلة والضريح وراءه، وكان بالزي الروحاني في أكمل صورة وأنور جمال، وأمامه في الإيوان قبور مرتفعة عن الأرض كلّ قبر بقدر إصبع أو ما أشبه، وكانت تلك القبور قبور خطباء المنبر الحسيني.

وقد عرفت جملة منهم ممّن كانت عندهم مؤلّفات، فكانوا يخرجون من القبور، ومتى ما شاءوا دخلوه كأموات، وكان لكلّ قبر من تحته أنبوب ممدود إلى الصحن الشريف مُنتَهٍ إلى حوض صغير فيسير الماء داخل الأنبوب إلى الحوض، والناس محتفّون بتلك الأحواض يشربون منها ويتوضّؤون ويغسلون وجوههم وأيديهم. وفي هذا الأثناء خرج أحد الخطباء من قبره . وكان من أصدقائنا . وتوجّه إلى الإمام عليه السلام وقال: يا بن رسول الله لماذا ليس في قبري أنبوب ولا حوض؟ فرفع الإمام عليه السلام يده اليسرى وبسط كفّه، وكأنّه يكتب بيمناه خطاً في كفّه اليسرى قائلاً له: أنت لم تكتب كتاباً تتركه من بعدك، ولذا لا حوض لك.

وقد أصررت على ذلك الخطيب في حياته لكي يؤلّف، لكنّه أبى ولم يكتب شيئاً. الملفت للانتباه إنّني رأيت أنّ لقبر الشيخ عبد الزهراء الكعبي[٧١] أيضاً أنبوب إلى حوض له في الصحن الشريف كسائر الخطباء، ففكّرت في أمره فهداني تفكيري إلى أنّ مقتل الإمام الحسين عليه السلام الذي قرأه في يوم عاشوراء طبع بعد وفاته بشكل كتاب مستقل عشرات الطبعات حتّى الآن.

هداية الآخرين

٤: من فوائد الكتاب هداية الآخرين، وهذا واضح لكل من يراقب سيرة المهتدين ويتابع

---

(٧١) ولد في كربلاء المقدّسة سنة ١٣٢٧هـ وانتهل العلوم والمعارف الإسلامية من معين مدارسها الدينية، وبلغ مكانةً عالية في الخطابة الحسينية، واتّسم بالصفات الحسنة كالكرم والشجاعة والإقدام. واشتهر بقراءته لمقتل الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء. اغتيل بالسمّ عبر القهوة سنة ١٣٩٤هـ من قبل الحكومة البعثيّة في العراق. من مؤلّفاته: قتيل العبرة.

أحوال الذين وصلوا إلى درب الهداية بسبب الكتاب، والشواهد على ذلك كثيرة إلاّ أنه نكتفي بالحادثة التالية:

كان يأتيني شاب . قبل ما يقارب ثلاثين سنة . إلى ديوانية المسجد في الكويت، وفي إحدى المرات قلت له: من أنت ومن أين وماذا عملك؟

قال: إنّي من فلسطين، واسمي: فلان، وعملي: أستاذ في جامعة الكويت.

قلت له: وما هو مذهبك؟

قال: شيعي.

قلت: وكيف صرت شيعياً؟

قال: إنّ لي عائلة غير شيعية وإنّي اخترت هذا المذهب في جامعة أمريكا.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: إنّي كنت أراود مكتبة الجامعة فرأيت فيها كتاباً بعدّة مجلّدات يسمّى بالغدير(٧٢) فتعجّبت أوّلاً لهذا الاسم فتصفّحته قليلاً ثمّ قرأته من أوّله إلى آخره فعرفت أنه حقّ وراجعت بعض مصادره ممّا كان متوفّراً في تلك المكتبة فظهر لي صحّة ما نقله الغدير ولذا اخترت مذهب أهل البيت عليهم السلام.

ولما رجعت إلى فلسطين باحثت بعض علمائنا، وحيث لم أجد له ردّاً على ما ذكر في الكتاب بقيت مصرّاً على الطريقة التي اخترتها.

---

(٧٢) كتاب (الغدير) للعلاّمة المحقّق الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه الله يقع في عشرين مجلّداً طبع منها ١١جلداً، ألّفه قدس سره خلال عشرين سنة وعانى من أجل تأليفه الكثير من المضايقات وضحّى بالغالي والنفيس من أجله، وهو يعتبر من خيرة مؤلّفات الشيعة الإمامية التي تثبت أحقّية أهل البيت عليهم السلام وصحّة عقائدهم.

تضحيات من أجل الكتاب

ممّا يؤسف له حقّاً أنّ المسلمين اليوم لا يعرفون قدر التضحيات العظيمة والمعاناة الشديدة التي قدّمتها الأجيال السابقة من أجل حفظ الكتاب وإيصاله لمن بعدهم ..

فقد عانى المسلمون سابقاً الكثير من المشاكل حتّى أوصلوا لنا هذا التراث الضخم، وقد جرت من أجله الكثير من الدماء الزاكية وقدّمت الأموال الطائلة حتّى حفظ لنا هذا التراث بهذه الدقّة والمتانة خاصة في ضبط الروايات وتخريجها، حيث بقي الأصحاب يدقّقون بشدّة في نسخها واستنساخها.

يقول أحمد بن محمد بن عيسى:

جئت إلى الحسن بن علي الوشّاء وسألته أن يُخرج إليّ كتاباً لعلاء بن رزين وكتاباً لأبان بن عثمان الأحمر، فأخرجهما.

فقلت: أُحبّ أن أسمعهما.

فقال لي: رحمك الله، ما أعجلك اذهب، فاكتبهما واسمع من بعد.

فقلت له: لا آمن الحدثان(٧٣).

فقال: لو علمت أنّ الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرت منه، فإنّي قد أدركت في هذا المسجد مائة شيخ، كل يقول: حدّثني جعفر بن محمّد عليه السلام(٧٤).

وعن حمدويه، عن أيّوب بن نوح: أنه دفع إليه دفتراً فيه أحاديث محمد بن سنان، فقال: إن شئتم أن تكتبوا ذلك فافعلوا، فإنّي كتبت عن محمّد بن سنان (٧٥).

ونقل في أحوال علي بن الحسن بن فضّال إنه لم يرو كتب أبيه الحسن مع أنه تلقّاها منه شخصياً وإنّما رواها عن أخويه أحمد ومحمد اللذان نقلا الروايات عن والدهما، وقد اعتذر علي

---

(٧٣) وهذا يدل على دقّتهم في نقل الأحاديث حيث كانوا لا يدوّنون إلاّ المسموعات بالطرق الصحيحة.

(٧٤) رجال النجاشي: ص٢٨.

(٧٥) رجال الكشي: ص٥٠٧.

بن الحسن عن عدم نقله للروايات مباشرة عن أبيه بأنه يوم تلقّى الأحاديث عن والده كان صغير السن ولم تكن له معرفة كثيرة بالروايات، فقرأها على أخويه مرّة أُخرى(٧٦).

من بركات الكتاب

إنّ الذي يتابع الأخبار الشريفة ويحقّق في سيرة العلماء الأعلام يجد أنّ الذين ألّفوا كتباً ودوّنوا ما حصّلوه من العلوم والتجارب قد خلّد ذكرهم وحفظ صيتهم عبر التاريخ.

أمّا الذين رحلوا ولم يكتبوا شيئاً فقلّما تجد أنّ أحداً يذكرهم وإذا ذكروا فهم لا يذكرون كالذين تركوا تراثاً للأجيال اللاحقة، والشواهد على ذلك كثيرة منها:

ما ذكر في أحوال الشيخ الصدوق وأخيه حيث إنّهما ولدا ببركة دعاء الإمام الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)، وكلاهما كانا من الذين درسوا علوم آل محمد عليهم السلام إلاّ أنّ العالم اليوم يقوم ويقعد بذكر الشيخ الصدوق قدس سره بينما قلّما يذكر أخوه وذلك يعود إلى أُمور منها أنّ الصدوق رحمه الله ألّف وكتب وأكثر من الكتابة فبقي التاريخ يفتخر بتراثه القيّم الذي ظلّ العلماء ينهلون منه.

(٧٦) راجع رجال النجاشي: ص١٨١.

من فوائد الكتاب

من جانب آخر فإنّ من بركات الكتاب المهمّة هو التأثير الإيجابي على مختلف الناس وقد شاهدت ذلك في حوادث كثيرة ومنها:

إنّني ألّفت كتيباً بعنوان «مَن هم الشيعة»[٧٧] وبعثت به إلى الحجّ ليطّلع عليه من غمرتهم الحركات المضلّة بدعاياتها ويعرفوا أنّ ما سمعوه عن الشيعة على لسان أعدائهم لا حقيقة له، لعلّ ذلك يكون سبباً لرجوع الأُخوّة الإسلامية.

وبالفعل، فقد أخبرني أحد الأصدقاء الذين حملوا عدداً من نسخ هذا الكتاب إلى مكّة المكرّمة، فقال: عندما كنت في المدينة المنوّرة احتجت إلى الحمّام، فذهبت إليه، وإثر خروجي منه أعطيت الحمّامي بالإضافة إلى الأُجرة نسخة من هذا الكتاب.

فلمّا قرأ اسم «الشيعة» عليه غضب غضباً شديداً ورمى الكتاب بكلّ انزعاج على الأرض. فخرجت ولم أقل شيئاً.

وبعد أيّام احتجت إلى الحمّام مرّة ثانية، واضطررت إلى الذهاب إلى نفس الحمّام، ودخلت بحالة اختفاء، فرأيت الحمّامي نفسه جالساً عند الصندوق، وحينما أردت الخروج خفية بعد تقديم المال إليه، التفت إليّ ولم يأخذ منّي، فتعجّبت كثيراً وتصوّرت أنّه لم يعرفني وقلت له: هذه أجرة الحمّام فلماذا لا تأخذها؟

قال: بعد أن ذهبت في المرّة السابقة أخذت أطالع الكتاب بكلّ كراهية وحذر، وإذا بي أقرأ أشياء معكوسة عمّا هو شائع عن الشيعة عندنا، فالشيعة إمّا هم المسلمون وحدهم أو هم أحد المذاهب الإسلامية؟ فحقّقت عن الأمر فتبيّن لي إنّ الشائع عندنا كان كذباً وزوراً وبهتاناً، فغيّرت رأيي في الشيعة.

تأثير كتاب (المراجعات)

كما نقل لي أحد تجّار الحجاز فقال:

قبل أربعين سنة تقريباً كنت أحضر مجلس أحد الوزراء حيث كانت أموري التجارية

---

(٧٧) وكان ذلك قبل أربعين عاماً تقريباً.

مرتبطة به فكنت أجلس عنده وكان يستقبل الضيوف كل أسبوع ليلة، وكان يحضر عنده على الأغلب تجار وهّابيون، وكانوا على علم بأنّي شيعي فينالون من الشيعة بكل كذب وتُهم وافتراء، وكنت أسكت حيث أضطر إلى ذلك، وعلى قول الشاعر:

إذا لم تجـــد غـــير الأســـنّة مركبـــاً

فمـــا حيلـــة المضـــطر إلاّ ركوبهـــا

ومع الأسف الشديد أنّ الوزير نفسه لم يكن يتوان عن مشاركتهم في ذلك التهجّم.

وذات ليلة وبعدما شرعوا في الكلام ضدّ الشيعة، قال الوزير: اسكتوا لا يحقّ لكم التكلّم ضدّهم إنّهم مثلنا مسلمون، فتعجّب الجميع وتعجّبت أنا أشدّ التعجّب من هذا التحوّل الذي طرأ على الوزير، ولم يقل أحدهم شيئاً ولم أتكلّم أنا.

يقول التاجر: جلست وجلست حتّى ذهب الجميع فبقيت أنا والوزير فقط، فقلت له: رأيت اليوم منك عجباً، لماذا قلت ما قلت وأنت كنت تشارك أصدقائك في التهجّم على الشيعة كلّ مرّة.

قال الوزير: يا أخي إنّي كنت على ضلالة، وصدفة رأيت كتاباً اسمه «المراجعات»(٧٨) وقرأته كلّه، فرأيت الشيعة على الحقّ وحدهم، ومن بعد ذلك ليس لي أن أهاجمهم وإنّي لم أر في معاشرتي لهم طوال عمري ما يخالف الأخلاق أو الآداب الشرعية.

نعم هكذا يغيّر الكتاب الواحد نظرة وزير، أليس ذلك دليلاً على ما نحن بصدده من ضرورة نشر الكتب بين أوساط الناس حتّى يصلح الفاسد ويرأب الصدع.

كما اهتدى الكثير من العلماء والأساتذة من أبناء العامة إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام

---

(٧٨) للإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين قدس سره، والكتاب عبارة عن رسائل متبادلة بين رئيس الأزهر آنذاك الشيخ سليم البشري وبين آية الله السيّد شرف الدين حول الإمامة سنة ١٣٣٠هـ . ولد السيّد شرف الدين سنة ١٢٩٠هـ في مدينة الكاظميّة في العراق، ويعدّ من تلاميذ الشيخ محمّد كاظم الخراساني، تصدّى للاستعمار الفرنسي في لبنان، فطاردته القوّات الفرنسية، وتعرّض للاغتيال عدّة مرّات وأُحرق بيته ومكتبته وكتبه الخطّية التسعة عشر التي لم يتسنّ لها أن ترى النور. توفّي في الثامن من جمادى الثانية سنة ١٣٧٧هـ وترك عدّة مؤلّفات مطبوعة، منها: الفصول المهمّة في تأليف الأُمّة، أبو هريرة، أجوبة مسائل موسى جار الله، النص والاجتهاد، فلسفة الميثاق والولاية، رسالة كلامية، المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة.

ببركة كتاب (المراجعات) للمرحوم شرف الدين العاملي (رضوان الله عليه) وغيره من الكتب.

معاناة من أجل الكتاب

بما أنّ الكتاب يعد وسيلة ناجحة لإحياء الفكر ونشر العقيدة وتربية المجتمعات وسوقها نحو الكمال فقد ضحّى المسلمون خاصّة الشيعة من أجل نشره وحفظه العديد من التضحيات الجسيمة التي يطول شرحها ويعجز الإنسان عن إحصائها.

ففي العهود السابقة لم يكن الورق كما هو الآن من الكثرة والجودة، وإنّما كانوا يعانون الكثير من المعاناة حتّى يعدّوه للكتابة فكانوا يعتمدون على الجلود والورق.

فضلاً عن ذلك لم تكن الأقلام كما في عصرنا الراهن، وإنّما كان الناس يستفيدون من القصب وريش الطيور ناهيك عن ندرة الحبر وشحّته بين الناس[٧٩].

---

(٧٩) في العصور السابقة كانت الحركة الكتابية تختلف عمّا عليه الآن، فلو أردنا أن نستعرض تطوّر الكتابة في العصور السابقة من الرسوم والنقوش على الجدران والمواد الصلبة ثمّ إلى نظام الإشارات، كما كان يستخدمه البابليّون والسومريّون في الألف الثانية قبل الميلاد ثمّ إلى الحروف المسماريّة، أو نستعرض أدوات الكتابة أو موادها وطريقة تحضيرها، أو نستعرض كيفية نسخ الكتاب أو طبعه أو توزيعه، أو نستعرض قدم النصوص الكتابيّة أو المكتبات العامّة والخاصّة وما تحتويها من مخطوطات، أو نستعرض الرقابة ومسير الكتّاب أو أنواع الكتب وأحجامها وأشكالها لطال بنا المقام، وبإشارة نقول:

كانت الكتابة تتمّ على ألواح الخشب والطين والمواد الصلبة والجلود وورق البردي، وكانت بعض الدول تستخدم أعواد البامبو ودروع السلاحف والعظام والحرير ولحاء النخيل والقشرة الرقيقة البيضاء لثمرة البتولا للكتابة. وكانت الأقلام الكتابيّة عبارة عن أقلام القصب وريش الطيور والأقلام المعدنيّة، وكان تحضير الحبر الأحمر والأسود يتمّ بصعوبة وكانت الأواني التي يتمّ حفظ الحبر فيها تصنع من الفخار أو البرونز، فعلى سبيل المثال إنّ تحضير الأرقام الطينيّة يتمّ عبر وضع كميّة من الطين في إناء الماء لغرض تصفيته من الحصى والمواد الثقيلة، حيث تترسّب هذه المواد في القاع، أمّا القش وفتات الخشب وما أشبه فإنّها تطفو على السطح، فبعد إزالة ما يطفو يأخذ الطين بعد ترك ما هبط منه نحو الأسفل، وكان يتراوح حجم الطين من «٥ — ٦» سم إلى «٢٥ — ٣٠» سم

وبالرغم من ذلك كلّه تجد أنّ القدماء كانوا يكثرون من الكتابة حرصاً منهم على حفظ التراث وإيصاله للأجيال اللاحقة، بحيث إنّ العلاّمة الحلّي كتب ألف كتاب حتّى قالوا في حقّه: إنّه كان يكتب في الأسفار راكباً. وهكذا كان سائر علمائنا الأعلام كالشيخ الطوسي[٨٠] والصدوق والكليني وغيرهم من أجلاّء الشيعة الذين ملئوا الآفاق بمؤلّفاتهم

من حيث الارتفاع. وكان الكتّاب ينقشون الإشارات والرموز على الطين النقي ثم يوضع تحت أشعّة الشمس إلى أن تجفّ ثمّ يحفظ في الخوابي الطينيّة أو ترتّب على الرفوف.

وتحضير الجلود للكتابة يتمّ عبر غطس جلود الغنم والماعز ثلاثة أيّام في ماء الجير، لكي يذوب عنها الشحم وبقايا اللحم، وبعد ذلك يزال الصوف عنها وتشدّ ثمّ تترك مدّة من الزمن لكي تجفّ تماماً، وفي النهاية تؤخذ الجلود لتصقل من الطرفين وتقطع على شكل مربّعات. وكانت الكتابة تتمّ على الطرفين. وأقدم نصّ كتب على الجلود عُثر عليه في مصر، يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وانتشر استعمال الجلود بكميّات كبيرة في القرن التاسع قبل الميلاد في مصر والعراق، ومنهما انتقل إلى البلاد الأُخرى.

أمّا تحضير الورق البردي فيتمّ عبر أخذ ساق النبات وتقسيمها إلى شرائح طويلة ثمّ توضع الشريحة فوق الأُخرى بشكل متصالب وتغمر في المياه ثمّ تجفّف تحت أشعّة الشمس، وتصقل بعد ذلك وتسوّى أطرافها بحيث لا يبعد طول الصفحة ٢٥ – ٣٠سم. وكانت الكتابة تتمّ على شكل أعمدة على طول الشريط وتتّصل ببعضها. وكان في بادئ الأمر يستخدم الجبس في طلاء الورق لئلاّ ينتشر الحبر في موضع الكتابة وبعد ذلك أُستخدم الصمغ الذي يصنع من الأشنة أو النشاء. واستخدم ورق البردي في الألف الرابعة قبل الميلاد في مصر، ويعتقد البعض إنّ تاريخه يعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد في مصر، علماً إنّ مصر كانت أكبر مصدّر لهذا الورق. وانتهى استعمال هذا النوع من الورق في القرن الثالث عشر الميلادي حيث حلّ محلّه الورق الجديد، وكانت بغداد ودمشق تعتبران مصدراً مهمّاً لصناعة هذا الورق ومنهما انتقل إلى أوروبا.

(٨٠) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي شيخ الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة عين صدوق، عارف بالأخبار والرجال، والفقه والأُصول، والكلام، والأدب، وجميع الفضائل تنسب إليه. ولد في شهر رمضان سنة (٣٨٥هـ) وتوفّي في شهر محرّم سنة (٤٦٠هـ) ودفن بالمشهد الغروي المقدّس، له مؤلّفات كثيرة منها: المجالس المشتهر بالأمالي، الغيبة، المصباح الكبير، المصباح الصغير، الخلاف، المبسوط، الفهرست، والرجال، ... الخ. انظر روضات الجنّات: ج٦ ص٢١٦ باب ما أوّله الميم.

القيّمة التي بقيت بعدهم تهدي الكثير من الناس عبر الأزمان المختلفة.

نبذة حول المكتبات الإسلامية

لقد بلغ من شدّة اهتمام المسلمين في العصور السابقة أنّهم كانوا يمتلكون الكثير من المكتبات الضخمة التي ربما لا تملك الكثير من الدول الإسلامية اليوم مثلها.

فقد نُقل أنّ مكتبة العلامة نصير الدين الطوسي(٨١) قبل مئات السنين كانت تحتوي على أربعمائة ألف كتاب، وكان للسيد المرتضى قدس سره ثمانين ألف مجلّد من المقروءات والمصنّفات والمحفوظات، وقيّموا كتبه فبلغت قيمتها ثلاثين ألف تومان . آنذاك . عدا الكثير من النفائس التي أُرسلت إلى الأُمراء والوزراء(٨٢).

التعليق [f1]:

التعليق [f2]:

التعليق [f3]:

وذكر العلامة الآغا بزرك الطهراني: أنّ البيهقي نقل اعتذار الصاحب بن عبّاد(٨٣) عن الانتقال إلى خراسان لما طلبه السلطان آنذاك معتذراً أنّ كتبه العلمية تحمل على أربعمائة جمل.

وقد صدّق البيهقي هذا الاعتذار وقال: إنّ بيت الكتب الذي في الري دليل على صدقه فإنّي طالعته بعد إحراق السلطان محمود سبكتكين فوجدت فهرس تلك الكتب عشر

---

(٨١) هو المحقّق المتكلّم الحكيم المتبحّر الجليل، محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي قدس سره صاحب كتاب تجريد العقائد، وكتاب التذكرة النصيرية، وكتاب تحرير أقليدس وتحرير المجسطي وشرح الإشارات والفصول النصيرية والفرائض النصيرية والأخلاق الناصرية وكثير غيرها، ولد رحمه الله بمشهد طوس في سنة ٥٩٧هـ ، وتوفّي في سنة ٦٧٢هـ ودفن في مقابر قريش في الكاظمية. انظر روضات الجنّات: ج٦ ص٣٠٠ باب ما أوّله الميم.

(٨٢) راجع كتاب قصص العلماء، للتنكابني: ص٤٣٢.

(٨٣) هو أبو القاسم، إسماعيل بن عبّاد بن العبّاس الملقّب بالصاحب (الأصفهاني) ولد سنة ٣٢٦هـ ، سمّاه بالصاحب الأمير أبو منصور بويه ركن الدولة لما صاحبه إلى بغداد عام ٣٤٧هـ ، ولما تولّى أبو منصور الحكومة استدعى الصاحب من أصفهان وولاّه الوزارة. تميّز الصاحب بالأدب الرفيع حتّى صار أحد أقطاب الأدب العربي، وقد عدّ بعضهم له سبعاً وثلاثين مؤلّفاً طبع منها اثني عشر كتاباً.

مجلّدات(٨٤).

ونقل العلامة السيد محسن الأمين قدس سره في أحوال العالم الشيعي النحوي: ثابت بن أسلم الحلبي الذي ذكره الذهبي في وفيّات حدود ٤٦٠هـ فيما حكي عنه فقال: وتولّى خزانة الكتب بحلب لسيف الدولة فقال من بحلب من الإسماعيلية: إنّ هذا يفسد للدعوة وكان قد صنّف كتاباً في كشف عوارهم وابتداء دعوتهم، فحمل إلى صاحب مصر فأمر بصلبه فصلب وأحرقت خزانة الكتب التي بحلب وكان فيها عشرة آلاف مجلّد من وقف سيف الدولة بن حمدان(٨٥).

بل بلغ من شدّة اعتنائهم بالمكتبات أنّه كان في كل جامع كبير مكتبة، لأنّ من عادة العلماء آنذاك أن يوقفوا كتبهم على الجامع. فقد نقل: أنّ خزانة الكتب (بمرو) كانت تحوي على كتب يزدجرد، لأنه حملها إليها وتركها. وكان الملوك يتفاخرون في تلك العهود بجمع الكتب بحيث إنّ ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع شغفوا شديداً بالكتب؛ فكان الحكم صاحب الأندلس يرسل الرجال إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب فور ظهورها؛ وكان فهرس مكتبته يتكوّن من أربعة وأربعين كرّاسة، كل منها عشرون ورقة، ولم يكن فيها غير أسماء الكتب. أمّا في مصر فكانت للحاكم العزيز (المتوفّى عام ٣٨٦هـ = ٩٩٠م) خزانة كتب ضخمة؛ وقد أراد المتأخّرون أن يقدّروا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة، فقال المقريزي: إنّها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب.

وقد عمل علي بن يحيى المنجّم، خزانة كتب عظيمة في ضيعته، وسمّاها خزانة الحكمة؛ وكان يقصدها الناس من كل البلاد، يقيمون فيها ويتعلّمون منها صنوف العلم؛ والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى.

وبالرغم من كل هذا الاهتمام الطائل من المسلمين في العهود السابقة بالكتاب إلاّ أنّ الأجيال الأخيرة ضيّعت هذا التراث وغفلت عن أهميته فأصبحت مكتباتنا اليوم فقيرة إذا ما قسناها إلى مكتبات الغير، فإنّ أكبر المكتبات الإسلامية في العراق وإيران حالياً لاتتجاوز كتبها المليون كتاب على أكثر تقدير بينما تجد في مكتبة الكونجرس في أمريكا ما يقارب

(٨٤) الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج٦ ص٢٥٦.

(٨٥) أعيان الشيعة: ج٨ ص٨.

١٢٠ مليون كتاب.

من هنا كان اللازم علينا أن نعود إلى بناء المكتبات وتزويدها بالكتب المفيدة وندعو الناس إلى المطالعة والاستفادة منها ليرتفع مستوى الوعي في أوساطهم.

إتلاف المكتبات

بين الفترة والأُخرى كان التراث الإسلامي في مكتبات المسلمين الضخمة يتعرّض لحملات المغرضين والمناوئين الذين كانوا يترصّدون المسلمين ويطاردونهم في شتّى أنحاء العالم.

فقد تعرّض المسلمون وخاصّة الشيعة على مرّ التاريخ للكثير من الاضطهادات والمضايقات الشديدة التي جعلتهم يفرّون إلى أقصى أطراف العالم حتّى أنّك اليوم لا تكاد تجد بقعة في العالم تخلو منهم.

وعلى أثر هذه الاضطهادات بحقّ المسلمين الموالين كان الكثير من تراثهم يتلف ويباد والشواهد على ذلك كثيرة منها:

عندما احتلّ هولاكو[٨٦] بغداد سنة ٦٥٦هـ ، أمر بإلقاء الكتب في نهر دجلة، وكانت في إحدى المكتبات مليون مخطوط.

وعندما احتلّ الغرب بلاد الشام سنة ٥٠٢هـ في الحروب الصليبية أحرقوا المكتبات الموجودة بما فيها المكتبة الموجودة في طرابلس، والتي كانت تضمّ ثلاثة ملايين كتاب[٨٧]، وكان من بين هذه الكتب عدداً لا بأس به من نسخ القرآن الكريم، علماً إنّ قيمة أمثال هذه المكتبات يتبيّن إذا قايسناها بالمكتبات في هذا العصر مع لحاظ الفرق بين العصرين من وجود الورق والدواة وسرعة الطباعة والنشر وانخفاض التكاليف.

وعند ما انتزع الغرب بلاد الأندلس من أيدي المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي أحرق جميع المكتبات التي كانت هناك. ما عمله بعض حكّام المسلمين استنصاراً

---

(٨٦) هولاكو (نحو ١٢١٧ – ١٢٦٥م) مغولي مؤسس دولة المغول الإليخانية في إيران سنة ١٢٥١م حفيد جنكيز خان، أخضع أُمراء الفرس والإسماعيلية في قلعة (الموت) ١٢٥٦م، قضى على الخلافة العباسية في بغداد ١٢٥٨م واحتل سورية. هاجم المماليك جيشه في عين جالوت وأبادوه ١٢٦٠م. انظر المنجد في الأعلام حرف (الهاء).

(٨٧) راجع تاريخ التمدّن الإسلامي: ج٣ ص٥١.

لمذهب دون مذهب آخر، كما فعل ذلك خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس وبني عثمان بكتب الشيعة، حتّى إنّ بعضهم كان يلقي برماد الكتب المحروقة في البحر أو النهر أو ينثرها في الهواء تشفّياً منها.

وقد ذكر البعض أنّ ما أحرقه الأسبان من كتب قرطبة بلغ مليوناً وخمسين ألف مجلّد، ناهيك عمّا أتلفوه ممّا عثروا عليه في أقاليم الأندلس(٨٨).

ونقل أنّ أسقف طليطلة أحرق من الكتب الإسلامية ما يزيد على ثمانين ألف كتاب، وأنّ الإفرنج لما انتصروا على غرناطة أحرقوا من الكتب النفيسة ما يتجاوز المليون كتاباً(٨٩).

وأشار بعض المؤرخين المصريين: أنّ المتبقّي من الكتب التي ألّفها المسلمون ليس إلاّ نقطة من بحر ممّا أحرقه الصليبيون، والتتر، والأسبان(٩٠).

وعند ما أسقط صلاح الدين الأيّوبي الدولة الفاطمية أحرق جميع المكتبات التي كانت في البلاد، فأضرم في بعضها النار وألقى بعضها الآخر في نهر النيل وترك بعضها في صحراء سيناء، فسفت عليها الرياح حتّى صارت تلالاً عرفت بتلال الكتب، كما إنّ حمّامات القاهرة بقيت ستة أشهر تحرق كتب الشيعة لتسخين المياه في مراجلها. ومن تلك المكتبات التي أحرقها، خزانة الكتب التي أنشأها الحاكم الفاطمي «العزيز بالله» سنة ٣٦٥هـ ، وكانت تحتوي على مليون وستمائة ألف كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والطب والكيمياء وغيرها، يقول جورج زيدان في كتابه (تاريخ التمدّن الإسلامي) المجلّد الثاني ص٢٢٩: كانت تحتوي على ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة وستّة آلاف وخمسمائة جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة، وكان فيها «٣٤٠» ختمة قرآن بخطوط منسّقة مزيّنة بالذهب ومجلّدة بشكل نفيس، وكان فيها «١٢٠٠» نسخة من تأريخ الطبري.

وكذلك أحرق صلاح الدين دار الحكمة التي أنشأها الحاكم الفاطمي «أمر الله» سنة ٣٩٥هـ ، وكانت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب.

---

(٨٨) راجع التراتيب الإدارية: ج٢ ص٤٥٣ – ٤٥٤.

(٨٩) التراتيب الإدارية: ج٢ ص٤٥٤.

(٩٠) التراتيب الإدارية: ج٢ ص٤٥٤ – ٤٥٥.

يقول صاحب كتاب (تاريخ الكتاب) في القسم الأول ص١٤٣) [٩١] ما نصّه: وقد سجّلت نهاية العصر الفاطمي بداية انهيار المكتبات الكبرى في القاهرة، فقد أدّى النهب والحرائق واللامبالاة إلى القضاء على قسم كبير من ثروة المكتبات التي كان الخلفاء الفاطميّون وهم من محبّي الكتب قد أنفقوا عليها الكثير من اهتمامهم وثروتهم.

تراث أهل البيت عليهم السلام

على الرغم أنّ الكثير من التراث الشيعي قد أُتلف على يد الطغاة والمعاندين الذين أبادوا المكتبات وأحرقوها إلاّ أنّ هناك قسطاً كبيراً منه ما زال في طيّات المخطوطات البعيدة عن أيادي الكثير من الشيعة. فقد سألت العلاّمة السيّد محسن الأمين قدس سره صاحب كتاب أعيان الشيعة: كم من كتبنا غير مطبوعة؟

فقال: المطبوعة منها عشرة في المائة.

وقال لي أحد العلماء الأعلام معلّقاً على كلام الأمين: إنّه رحمه الله ذكر ما وجده في المكتبات وإلاّ فإنّه لم يطبع منها (٩٩) في المائة حيث لاحظت مكتبات الشيعة في إيران واليمن والعراق والهند وغيرها.

ويؤيّد ذلك إنّنا إذا ما طالعنا كتب الرجال لوجدنا أنّ أغلب المؤلّفين الكبار كالعلاّمة الحلّي وأمثاله لم يطبع من كتبهم إلاّ القليل.

وذكر البعض أنّ تأليفات العلاّمة المجلسي قدس سره، قسّمت على أيّام حياته فكان لكل يوم ألف بيت كل بيت خمسين حرفاً وهذا تأييد من الله عزّوجلّ، لأنّ كتابة ألف بيت كل يوم صعب جداً وهو ممّا لا يمكن صدوره من أكثر الناس إضافة إلى زمان ولادته وطفولته ومرضه وسفره وتدريسه وغير ذلك من الأعذار[٩٢].

وقيل إنه جرى الحديث في أحد الأيام عن العلاّمة الحلّي قدس سره وأنّ حاصل تأليفاته وتصنيفاته لكل يوم من عمره كلّه ألف بيت، فقال العلامة المجلسي رحمه الله: ونحن أيضاً

---

(٩١) للدكتور الكسندر ستيتشفيتش

(٩٢) ولا يخفى أنّ الإمام الشيرازي نفسه قسّمت عدد صفحات كتبه على أيّام عمره، فظهر أنّه قدس سره كان يؤلّف أكثر من ٢٥ صفحة في كل يوم. راجع كتاب (الوصايا الأخيرة).

تأليفاتنا ليست بأقل منه.

فقال له بعض طلاّبه: كلامكم صحيح إلاّ أنّ تأليفات العلاّمة تصنيف وفكر وتحقيق، أمّا تأليفاتكم فتجميع ويقلّ فيها التصنيف.

فقال العلاّمة المجلسي ﵀: نعم إنّ العلاّمة اشتغل كثيراً في التصنيف بينما اشتغلت أنا في التأليف(٩٣).

وقد نقل لي السيّد علي الشبّر (رحمه الله تعالى) أنه ذات مرّة ذهب إلى الكاظمية واستأجر غرفة في فندق، وفي الليل لم يتمكّن من المنام لأنّ الرياح كانت تخفق بشدّة وتضرب بالأوراق، وحيث كان الصوت يأتي من ناحية المرحاض، قال: قمت ونظرت وإذا بكتاب لجدّي واقع في المرحاض، والهواء الذي يخرج منه في طريقه إلى السطح هو الذي يحدث ذلك الضوضاء، قال السيّد علي: فأخذت الكتاب ولما نظرت إليه رأيته كتاباً من كتب جدّي مخطوطاً فأخذته وحفظته.

بالطبع إنّ المخطوطات الشيعية ليست فقط لعلمائنا الأعلام في العصور السابقة، بل حتّى في عصرنا الراهن هناك الكثير من المخطوطات لبعض العلماء غير مطبوعة ولم يطّلع عليها أحد أصلاً ومنها ما كتبه أحد العلماء حول الإمام المهدي ﵇ وقد بلغ مائة جلد لم يطبع منها جلداً واحداً.

(٩٣) قصص العلماء للتنكابني: ص٢٢١ – ٢٢٢.

إنهم يحاربون الكتاب

لقد تآزرت الحكومات الظالمة عبر العصور المختلفة واتّفقت على محاربة الكتب التوعوية التي ترشد الشعوب وتوقظهم من غفلتهم.

ولذا فقد حورب الكتاب بشدّة وطورد الكتّاب والمؤلّفين في كل مكان حتّى أصبحوا مشرّدين عن أوطانهم.

وقد شاهدت شخصيّاً كيف أنّ الحكومات المختلفة في بلادنا تحارب الكتب وتحول دون رواجها بين الناس ولو ذكرت القصص الدالّة على ذلك لاحتاج إلى كتاب مستقل إلاّ أنّني أقتصر على بعضها:

الرقابة الجائرة

لما نجح الانقلاب العسكري الذي قام به عبد الكريم قاسم[٩٤] وبأمر من أسياده في العراق، أصبحتُ في قائمة الذين منعت الحكومة طبع كتبهم، إلاّ مع رقابة شديدة، فإنّ الرقابة في زمان عبد الكريم قاسم كانت متشدّدة بحيث لا تجيز حتى طبع

(٩٤) عبد الكريم قاسم محمّد بكر الزبيدي من مواليد (١٩١٤م) بغداد، التحق بالكلّية العسكرية في عام (١٩٣٢م). شارك في حرب فلسطين عام (١٩٤٨م) في جبهة الأردن، انتمى لتنظيم الضبّاط الأحرار عام (١٩٥٦م). قام بانقلاب عسكري عام (١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م)، أطاح بالحكم الملكي، قتل أغلب أفراد العائلة الملكية بما فيهم الملك فيصل الثاني، أعلن الحكم الجمهوري. ألغى المظاهر الديمقراطية كالبرلمان والتعدّدية الحزبية ما عدا الحزب الشيوعي الذي أضحى الحزب المحبّب للسلطة، وألغى الحكم المدني. استمرّ حكمه قرابة أربع سنوات ونصف تقريباً. تعرّض في عام (١٩٦٣م) لانقلاب عسكري دبّره عبدالسلام عارف مع مجموعة من الضبّاط البعثيين أمثال أحمد حسن البكر وعبدالكريم فرحان وصالح مهدي عمّاش وغيرهم، أُعدم رمياً بالرصاص مع بعض رفاقه في دار الاذاعة في التاسع من شباط ١٩٦٣م.

مثل تفسير: (تقريب القرآن إلى الأذهان)[٩٥].

وقد كان لي ممّا كتبته أربعة عشر كتاباً في علوم مختلفة وكنت قد جمعتها تهيئة لطبعها في العراق في مجلّد واحد، وكانت هي من قبيل: شرح دعاء السمات، وشرح كتاب نصاب الصبيان، وكتاب في علم الهيئة والنجوم، وكتاب في علم الهندسة، وكتاب في علم الحساب، وما أشبه ذلك، فصادرته الحكومة في العراق ولم نظفر بعد ذلك عليها حيث كانت النسخة منحصرة في تلك التي قدّمتها للطبع.

وفي حكومة الملكيين في العراق التي كانت برئاسة نوري السعيد[٩٦]، فإنّي أذكر جيّداً أنّ الأخ الشهيد (تغمّده الله برحمته)[٩٧] كان يصدّر آنذاك مجلّة باسم: (الأخلاق والآداب)

---

(٩٥) وهو تفسير مزجي ومختصر مبسّط يفهمه الجميع، ويشتمل على ميزات لم توجد في سائر التفاسير إلاّ نادراً، طبع مرتان (ثلاثون جزءً في ١٠ مجلّدات) في بيروت لبنان عام ١٤٠٠هـ ، إلاّ الأجزاء الثلاثة الأخيرة (٢٨ و٢٩ و٣٠) حيث طبعت ثلاث مرّات كانت أُولاها في النجف الأشرف – العراق عامي ١٣٨٥هـ و١٣٨٧هـ .

(٩٦) نوري سعيد صالح السعيد من مواليد بغداد عام (١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م)، أصبح رئيساً للوزراء بين عام (١٣٤٩ / ١٣٧٧هـ – ١٩٣٠ / ١٩٥٨م) لأربع عشرة دورة، ووزيراً للدفاع في خمس عشرة دورة، ووزيراً للخارجية في إحدى عشرة دورة، ووزيراً للداخلية في دورتين. أحد عملاء بريطانيا في العالم العربي، وضع إمكانات العراق وقدراته تحت تصرّف البريطانيين، وكانت سياسته مبنية على نظرية (خذ وطالب) وعلى التحالف مع الإنجليز وجعل العراق ضمن التكتلات الدولية والتبعية الاقتصادية للاستعمار، وجعل العراق سوقاً لمنتجات الدول الاستعمارية ومصدراً لمواده الخام. أسّس في الخمسينيات حزب الاتحاد الدستوري لدعم وزارته، وكان حزبه وحزب صالح جبر (الأُمّة الاشتراكي) لا يختلفان من الناحية التنظيمية والفكرية عن بعضهما، فالاثنان مواليان للإنجليز وأغلب أعضائهما من القطاع الموالي للإنجليز، وكانا يتنافسان أحياناً ويختلفان في بعض المسائل الداخلية. انتحر بعد أن أطلق النار على نفسه عام (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) وقيل قتل، من مؤلّفاته: استقلال العرب ووحدتهم.

(٩٧) هو المفكّر الإسلامي الكبير آية الله الشهيد السيّد حسن الشيرازي (١٣٥٤ – ١٤٠٠هـ) الأخ الأصغر للإمام المؤلّف ﵀ .. وقد كتب مقالات عديدة (في مجلّة الأخلاق والآداب التي كانت تصدر من مدينة كربلاء المقدّسة منذ عام (١٣٧٧هـ)) منها: (زيارة العتبات) و (الإسلام يعالج مشكلة الطبقات) وغيرهما ..

وكان مفادها كاسمها متعرّضاً للأخلاق والآداب فحسب، لكن كلمة واحدة منها فقط وقعت مورداً لإشكال حكومة نوري السعيد حيث ادّعت أنّها استفزازية، مع أنّها لم تكن كلمة سياسية، وإنّما كان ادّعاء الحكومة ذلك ذريعة إلى إغلاق تلك المجلة الأخلاقية والتوعوية، والحكم بسجن مصدّريها والعاملين فيها، وكانوا ما يقارب من عشرة أشخاص، فحكمت على كل واحد منهم بالسجن ثلاثة أشهر، لكن نوري السعيد نفسه الذي أصدرت حكومته هذا القرار وحكمت على مصدّري مجلّة الأخلاق والآداب بالسجن، وحاربت بذلك الثقافة والوعي، شملته تعاسة عدم وعي الناس، وعمته بليّة اللاّوعي الراسخ في الشعب، حيث أنّه أُطيح به وبحكومته في انقلاب عسكري مسلّح أودت بحياته وحياة حكومته، وأغلقت ملفّ النظام الملكي في العراق، وذلك على ما هو معروف من تاريخ الملكيين.

وهذا كان من نتائج محاربة الوعي والثقافة، حيث تمكّن الأسياد بواسطة عدم وعي الناس من تنفيذ انقلاب عسكري، من دون اعتراض أحد من الناس، بينما لم يستطع الأسياد من تنفيذ انقلاب عسكري في بعض البلاد وذلك لوعي الشعوب فيها.

ولا يخفى أنه كانت لنا في العراق خمسة عشر مجلّة، مثل: مجلّة الأخلاق والآداب، ومجلّة صوت المبلّغين، ومجلّة أجوبة المسائل الدينية، وغير ذلك من المجلاّت الأخلاقية والاجتماعية .. وقد ذكرت أساميها كلّها في بعض الكتب التي كتبتها في هذا المجال[٩٨]، فعمدت الحكومة العراقية وبأمر من أسيادها الناقمين على الإسلام والمسلمين إلى إغلاق كل هذه المجلاّت الخمسة عشر، ومنعها من الصدور.

والملفت للانتباه أنّ الحكومة بسبب الرقابة طبعت كل كتاب ضدّ العقيدة والأخلاق، في حين أنّها منعت كل كتاب يخدم المجتمع ويدعو إلى التقدّم والازدهار.

ولا غرابة في ذلك إذ أنّ الهدف من الرقابة واضح جدّاً، فهي تريد محو الإسلام، وقد نَظَمتُ هذا البيت في حقّ الرقابة:

في بلادي في بلادي تخنق الدين الرقابة
حيثما يُمرح الإلحاد ولا يخشى ارتقابه[٩٩]

---

(٩٨) راجع كتاب (عشت في كربلاء) و(كفاحنا) للمؤلّف دام عزّه.

(٩٩) راجع كتاب في بلادي ص٣٤.

وأتذكّر عندما كنت في العراق كيف عاقبت الرقابة الموزّعين لمنشور من صحيفة ضدّ إسرائيل، بينما كانت تجيز كل يوم المناشير التي تعلن عن محلاّت الخمور والمباغي السرّية والعلنية والملاهي والمراقص.

وذات مرّة قال لي أحد التجّار وكان من أصدقائنا: بأنه يسعى لتأسيس مصنع لتجميع السيارات وكان يحاول الحصول على إجازة ذلك من الحكومة، لكنّي قلت له: لا تحاول ذلك، فإنّ حكوماتنا غير مستعدّة لإجازة أمثال هذه الأُمور، لكن الرجل كبقيّة الناس لحسن ظنّه حاول وحاول ذلك لمدّة طويلة من الزمان للحصول على الإجازة، ثمّ بعد ثلاث سنوات قالت له الحكومة مهدّدة: الأفضل لك أن تترك هذا الأمر، ممّا اضطرّ إلى تركه!.

وقد جدّد حزب البعث سنّة الأوّلين فأخذ جملة من كتبي المخطوطة لعلّها تصل إلى خمسين وجعلها قطعة قطعة، كما ألقى بجملة من كتبي المطبوعة في الشارع أو ما أشبه ذلك.

والبهلوي الأوّل صنع بالكتب الدينية مثل ذلك الصنيع، ناهيك عمّا فعلته إحدى الدول التي أنا فيها بكتبي حيث صادرت نفس تفسير (تقريب القرآن إلى الأذهان) الذي حاربه الملكيون، وكان يبلغ عدد دوراته أكثر من ألف دورة. كما وقد أحرقت الحكومة نفسها كتاباً آخر لي باسم: (هكذا كانت حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام) فقد طبع منها - بعد إجازة الرقابة المفروضة فيها على الكتاب - عشرة آلاف نسخة، لكن لما عرفت الحكومة بعد إجازة رقابتها بالطبع، بأنّ هذا الكتاب يضرّ بما يزعموه ويدعوه من سياستهم الإسلامية - حيث كان الكتاب يوجب وعي المسلمين بالحكم الإسلامي الصحيح الذي طبّقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإمام أمير المؤمنين عليه السلام - أمروا بمصادرتها وحرقها جميعاً، ومن حسن الحظّ أنّه كانت باقية عندي النسخة المخطوطة الأصلية، وإلاّ لذهب الكتاب نهباً وحرقاً [١٠٠]. كما صادرت نفس الحكومة منّا كتباً متعدّدة، وقد كان من بينها (كلمة أمير المؤمنين عليه السلام) للأخ

---

(١٠٠) الكتاب الذي صودر كان باسم (روش حكومت بيامبر وأمير مؤمنان) بالفارسية، وقد صادرتها السلطات الإيرانية من المطبعة وأحرقتها جميعاً، ثم طبع الكتاب بعد سنوات عديدة في بلد آخر باسم (برتوي از حكومت بيامبر صلى الله عليه وآله وسلم وأمير مؤمنان عليه السلام).

الشهيد[١٠١]، إلى غير ذلك ممّا يطول ذكره[١٠٢].

ولا يخفى أنّ هناك فرقاً عظيماً بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ عن ثلاث: ولد صالح يدعو له وعلم ينتفع به وصدقة جارية»[١٠٣].

وبين ما يعمله العديد من حكّام المسلمين من إحراق الكتب العلمية وإفنائها وتعذيب المؤلّفين وقتلهم.

فقد نقل أنّ السلطان الغاشم أمر بضرب (القاضي نور الله) لبعض تأليفاته بالسياط الشائكة رغم علمه الغزير وتقدّمه في السن ومقامه الرفيع بين أهل العلم والمؤمنين، ثمّ وضع في كيس وضرب بالسياط الشائكة مرّة ثانية، ثمّ أُحرق وذرّ رماده في الهواء.

كما قتل السلطان العثماني الشهيد الأول العظيم علماً وديناً والشهيد الثاني الذي كان تلو الشهيد الأول في العظمة والرفعة.

نعم لقد صدق فيهم قول ربّنا تعالى حيث قال: ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[١٠٤].

وكما أنّ المؤمنين عادة ما يكونوا على شاكلة واحدة، كذلك الظلمة والمفسدون وإن اختلفت المصاديق.

---

(١٠١) صادرت السلطات الإيرانية في مطار طهران الدولي (مطار مهرآباد) النسخة الخطية لكتاب (كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام) لآية الله الشهيد السيّد حسن الشيرازي قدس سره وذلك في تاريخ ١٩٩٥/٦/٢٧م، من أحد المشايخ الذي كان قد أتى بالكتاب من لبنان وسوريا.

(١٠٢) ومن الكتب التي صادرتها السلطات الإيرانية، وأتلفت جميع نسخها المطبوعة: (الفقه: الدولة الإسلامية) ثم طبع الكتاب في بيروت.

(١٠٣) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٢٣٠ ح١٣٩٦٠

(١٠٤) سورة الذاريات: ٥٣.

لا للرقابة

وعلى أيّ حال، فالأصل في الأشياء الإباحة إلاّ إذا ظهر انحرافها، لا العكس، كما أنّ الأصل هو حرية الإنسان في سيره ما لم يظهر أنه يخالف، وكذا بالنسبة إلى الكتب والمجلاّت وما أشبه فهي لا تحتاج إلى إجازة أو رقابة إلاّ إذا كانت مفسدة، هذا بالنظر الشرعي.

أمّا حسب القانون الغربي والعرف السائد عندهم فالكتاب والمجلّة والجريدة هي من ضروريات الحياة التي لا يمكن لأيّة قوّة من منعها.

فاللازم إلغاء الرقابة من بلادنا، كما يلزم أن تتسلّح الأُمّة بالوعي الكامل حتّى تستطيع أن تواجه الانحراف.

ثم إن من الوسائل التي استخدمتها الحكومات الديكتاتورية للتخلّص من الكلمة المكتوبة وإبقاء الشعوب على جهلها وتخلّفها هو وضع الرقابة على وسائل الثقافة والإعلام، وعلى الخصوص الكتاب، الذي يعتبر سلاح الشعوب في مواجهة الاستبداد، وسجّل الكفاح المرير في سبيل نشر وتوزيع الكتاب أنبل صفحات التاريخ الثقافية والإنسانية. وقد خسر الكثير من المؤلّفين والناشرين وأصحاب المكتبات والقرّاء في هذه الحرب ممتلكاتهم ومراكزهم الاجتماعية وحتّى رؤوسهم، بينما انتهت الكثير من الكتب إلى منصّات الإحراق والبحيرات والأنهار.

والرقابة على نوعين:

١: الوقائية، وهي ممارسة الرقابة على الكتب قبل أن تُرسل للطبع، قيل: أوّل من طبّقها الأساقفة سنة ١٤٨٥م في مدينة مانيس عندما أصدر رئيس الأساقفة (برتولوفون هنبرغ) مرسوماً بهذا الصدد. وهذا النوع من الرقابة تطورت وأصبح أكثر فعّالية بعد أن أضيف إليه نظام كامل من التهديدات والإجراءات التعسّفية، وشكّلت لجان كثيرة في وزارات الإعلام وظيفتها قراءة الكتب قبل إرسالها للطبع، وكان لهذه اللجان الدور البارز في تحجيم حركة الفكر والمعرفة. ومن تجلّيات هذا القسم هو صدور قوائم بالكتب الممنوعة، ومنع إدخال الكتب إلى البلاد، يقال: إنّ أوّل من استخدم هذا الأسلوب هو الملك البريطاني هنريك الثامن في القرن الخامس عشر الميلادي وتجاهل أسماء بعض الكتّاب والكتب في قواميس

الأعلام والمؤلّفات المرجعيّة.

٢: العلاجية: وهي ممارسة الرقابة على الكتب بعد طبعها، ومن تجلّيات هذا القسم حرق الكتب وإلقائها في مياه الأنهار.

إنّ الرقابة بكلا قسميها قد انتشرت في بلاد الإسلام وخلقت جوّاً للمؤلّف حتّى ينقطع عن التأليف، كما حذّرت المطابع بالإغلاق والمصادرة، وحذّرت المواطن من اقتناء هذه الكتب أو قراءتها أو حتّى إعارتها.

ولو أراد العالم الإسلامي أن ينهض ويصل إلى مصاف الدول المتقدّمة أو يتقدم عليها لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فعليه أن يلغي الرقابة، كما ألغى العالم الغربي ذلك في بدايات القرن الثامن عشر الميلادي، فالسويد . مثلاً . تخلّصت من الرقابة سنة ١٧٦٦م، والدانمارك سنة ١٧٧٠م، وهكذا.

وأفضل وسيلة للحدّ من سيطرة الرقابة، هو إيجاد ظروف مناسبة لإزالة الرقابة، ويتمّ ذلك بكتابة الكراريس والكتب حول حرية الطباعة وحرية الكلمة وأهمية الديمقراطية والتعدّدية الحزبية والتنافس الحر، على أن يكون أسلوب هذه الكتب مهذّباً وسلساً.

وكذلك يتمّ بكتابة مواضيع عن التسامح بين الناس الذين ينتمون إلى أحزاب أو جهات مختلفة ويحملون أفكار متباينة، إلى غير ذلك من الطرق السلمية البعيدة عن العنف.

لماذا تقدّم الآخرون؟

هناك أسباب كثيرة وراء تقدّم الآخرين وبقاء المسلمين على ما نراه اليوم من التخلّف الثقافي وقلّة الوعي، كان منها اهتمامهم بالكتب وشدّة اعتنائهم بتوعية شعوبهم عبر مفردات التوعية من الكتب وغيرها وترويج كل ما يبعث الوعي في بلادهم.

ففي أحد الأيّام التقيت بصديق من التجّار الذي كان يمتهن المتاجرة مع اليابان، ويذهب بين فترة وأُخرى إليها، وأحياناً كان عمله يتطلّب أن يبقى فيها ثلاثة أشهر، فسألته ذات مرّة عن سبب تقدّم اليابان هذا التقدّم الهائل، مع أنّ اليابان كانت وإلى قبل نصف قرن تقريباً . أي بعد الحرب العالمية الثانية، على أثر دمار الحرب وغيرها . من البلاد المتأخّرة وكانت البضائع اليابانية في العراق تعدّ من البضائع غير الجيّدة وخاصّة بالقياس إلى البضائع الغربية المتقدّمة، بحيث كان الناس لا يقبلون عليها ما دام كان يوجد في السوق مشابهاً لها من البضائع الغربية المتطورة.

فأجابني قائلاً: إنّ لتقدّم اليابان أسباباً كثيرة والتي شاهدته منها هو: اهتمامهم الكبير شعباً وحكومة بثقافة الكتاب والمطالعة، حتّى أنّك إذا دخلت اليابان تجد في المطار مكتبة، وفي الحديقة العامّة مكتبة، وفي عيادات الأطباء مكتبة، وفي مكاتب المهندسين مكتبة، وفي السيارات مكتبة، وفي الباصات مكتبة، وفي القطارات والباخرات والطائرات مكتبة، وهكذا .. وإذا دخلت البيت الياباني وجدت في الصالون مكتبة، وفي غرفة الاستقبال مكتبة، وفي غرفة الطعام مكتبة، وفي غرفة المنام مكتبة، وفي غرفة الاجتماع مكتبة، وحتى في بيت الخلاء والمرافق الصحية أيضاً مكتبة صغيرة بحيث إذا أراد الإنسان أن يجلس لقضاء الحاجة بمقدار دقيقة أو دقيقتين، طالع بذلك المقدار من الوقت واغتنم تلك الفرصة.

كما إنّك إذا ركبت الطائرة أو الباخرة، أو السيارة أو القطار، وجدت كل إنسان جالس في هذه الوسائل المعدّة للنقل والمواصلات مشغولاً بالمطالعة، يعني: أنه قد اغتنم فرصة الركوب لمطالعة كتاب أو مجلّة أو جريدة أو ما أشبه ذلك.

كان ذلك الصديق التاجر يقصّ عليّ مشاهداته عن اليابان وثقافة اليبانيين ومكتباتهم

التي تفوق عدد نفوسهم، فمرّ على خاطري مأساتنا في العراق، حيث أسّسنا في كربلاء المقدّسة ما يقرب أربعين مكتبة بدائية للمطالعة في المساجد والمدارس وما أشبه ذلك، فأغلقت الحكومة كل تلك المكتبات، وكذلك أغلقت الحكومة العراقية ما أسّسناه من مكتبة عامّة تفتح أبوابها على الجميع، وكنّا قد سمّيناها باسم: (مكتبة القرآن الحكيم العامّة)، لتزويد مكتبات العراق ومختلف بلاد العربية والإسلامية بالكتب والمطبوعات والمعلومات الدينية والثقافة العامّة، فعمدت الحكومة العراقية إلى إغلاق هذه المكتبة: مكتبة الأُم العامّة وكل تلك المكتبات التي كانت تتجاوز السبعين مكتبة، في كربلاء المقدّسة وفي مختلف المدن العراقية، وإضافة إلى إغلاقها صادرت الحكومة كل كتبها وجميع ما فيها!.

على كل فقد اعتنى غيرنا بالكتاب وتماهلنا نحن عنه ولذا تقدّموا عنّا، فقد قرأت أنّ الغربيين لما أرادوا التخلّص من الدوقات والكنيسة المنحرفة ألّفوا عشرين ألف عنوان كتاب بمختلف اللغات، ممّا سبّب لهم التخلص منها والتقدم العلمي، ولم أعرف كم طبعوا منها.

وقد قرأت أنّهم ترجموا الإنجيل إلى ألف لغة ونشروها في جميع أنحاء العالم!

وأنه تصرف في إحدى الدول الغربية في العام الواحد ٢٠٠ مليار دولار للإعلام بمختلف أنواعه(١٠٥).

وقد طبعت بريطانيا مباشرة وتسبيباً لتأييد (أتاتورك) عشرة آلاف كتاب في تركيا وفي بعض البلاد العربية والأوربية وغيرها، كما طبع أهل الغرب وما إليه مائة ألف كتاب حول الديمقراطية للتخلّص من ديكتاتورية الحكام، وقد أثّرت الفئتان من الكتب كل أثر أراده المؤلّفون لها.

خلاصة القول إنّ للكتاب أثراً هائلاً في توجيه القارئ حقّاً كان أو باطلاً، صحيحاً أو فاسداً، إلاّ إذا كان القارئ قد تركّز على ما لا يزيله عن نظره، ولذا كان الفقهاء ينصحون من يريد قراءة الفلسفة: أن يقرأها عند عالم بصير له خبرة قوية في الكتاب والسنّة حتّى لا يسبّب بعض مطالبها انحراف ذهنه عن الحقّ.

---

(١٠٥) الدولة هي أمريكا، وقد ورد هذا التقرير في مجلة فارسية نشرت عام ١٩٩٨م.

بين المسلمين والغربيين

إن المسلمين بحكامهم حاربوا الكتاب، ولكن الغربيين لم يحاربوا الكتب فقط بل أتاحوا الحريات وشوّقوا إلى نشر الكتب والصحف والمجلاّت وما شابه ذلك.

ففي أحد الأيام حرّضت نفرين من أصدقائنا على أن يستقرّا في باريس ويعملا معاً لإخراج مجلّة هناك للمسلمين الذين يتواجدون في فرنسا ويبلغ عددهم خمسة ملايين نسمة تقريباً، وذلك حسب الإحصاء الرسمي، فذهبا إلى وكيل وزير الثقافة والإعلام هناك وقالا له إنّهما يريدان إجازة إصدار مجلة إسلامية مواصفاتها كذا وكذا..

فضحك وكيل الوزير قائلاً لهما: هل أنتما مسلمان شرقيان؟

قالا: نعم.

قال: إصدار المجلّة في بلادنا في حكم دخول السوق وشراء كيلو من التفاح أو الليمون، حيث إنه يحق لكل إنسان ذلك، والشرط الوحيد لتعامل كل إنسان مع الآخرين هو: أن لا يتعدّى الشخص على حقوق الناس فلا يضربهم بالسكين مثلاً، ولا يتورط بالتفجيرات وحياكة المؤامرات، وما أشبه ذلك، وكل ما لم يكن من هذا القبيل فهو لا يحتاج إلى إجازة.

كتاب (ماذا في كتب النصارى)

وقد كتبت كتاباً باسم: (ماذا في كتب النصارى؟)[١٠٦] وقد ترجم إلى عدّة لغات، وترجمه أحد الأصدقاء إلى اللغة السواحلية، وجاءني أحد تجّار أفريقيا ذات مرّة قائلاً إنّي وزّعت هذه الترجمة إلى خمسمائة عائلة مسيحية أو أكثر وعندما اطّلعوا على ما في كتبهم أسلم مئات العوائل منهم.

يقول التاجر، وبعد ذلك طلبني وزير المعارف هناك وقال: إنّ بلدنا ديمقراطي ولكل

(١٠٦) أشار المؤلّف ﷺ في هذا الكتيب إلى ما وقع من تحريف في كتب النصارى وبين أهم اعتقاداتهم المنحرفة بالله تعالى وبأنبيائه وكيف أنّهم حرّفوا النصرانية التي جاء بها نبي الله عيسى (على نبيّنا وآله وعليه السلام).

إنسان أن يوزّع ما يشاء من الكتب، لكنّي أرجوك أن لا توزّع هذا الكتاب بعدُ وذلك لأنّ المسلمين والمسيحيين يعيشون في هذا البلد بسلام ونشر هذا الكتاب إثارة للمسيحيين، وأخاف أن يحدث ما يكدّر صفو التعايش بسلام بينهما.

ولعلّ من المفارقات الملحوظة بين المسلمين وغيرهم هو أنّنا غالباً لا نشجّع على الكتاب، وأنا منذ نصف قرن أؤكد على دور الكتاب وضرورته ولكن التجاوب كان دون المستوى المطلوب بكثير.

مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام وكذلك القرآن الكريم يشجّع دائماً على العلم والوعي والثقافة والقراءة والكتابة.

وقد تكلّمت مع أحد الأخيار من أصدقائي وهو من التجار المؤمنين . ويظهر أنّه من مقلّدي . حول ضرورة نشر الكتاب ودوره ساعة من الزمن، وتكلّم معه آخران أيضاً حول الموضوع نفسه، كلنه لم يؤثّر فيه حتّى لطبع كتاب واحد، بينما تكلّمت معه ذات مرّة ثانية كلاماً عابراً لم يستغرق عشر دقائق في تأسيس مسجد كان يكلّف آنذاك . قبل خمسة عشر عاماً . مليونين، فأظهر فوراً الاستعداد لذلك وأعطى المال بسرعة.

دول الغرب لا تستطيع منع الكتاب

وقد بلغت علاقة غير المسلمين بالكتاب من المتانة بحيث إنّ أعظم السلطات في تلك البلاد لا تستطيع أن تحول دون انتشار الكتاب.

فقد حاولت بريطانيا أن تمنع كتاباً يضرّ نشره بالسياسة البريطانية وقواعدها الاستعمارية، فعقد مجلس الوزراء للبحث في ذلك، والتصويت على منع الكتاب، لكنّه لم يفلح في ذلك، ولم يصل إلى نتيجة، وخرج الكتاب إلى الأسواق رغم محاولة رئيسة الحكومة البريطانية من منعه.

كما أنّ حكومة إسرائيل لم تتمكّن أن تمنع كتاب: (المحدال) مع أنّها دعت الكنيست ومجلس الوزراء وغير ذلك لمنع هذا الكتاب الواحد الذي كتب لأجل الإطاحة بإسرائيل وإراءة أفضل الطرق لمحوها من الوجود، فباءت الحكومة بالفشل، ولم توفّق لمنع الكتاب، لأنّ قانون مطبوعاتهم لم يسمح لها بذلك، ورأت أنّ الطريق الوحيد هو إرضاء المؤلّف والقائمين بالطبع والنشر وإغرائهم بالمال وإقناعهم بسحب الكتاب من السوق، لكن المعنيين بأمر

الكتاب لم يرضوا بالسحب ونشروا الكتاب وبيع علناً في إسرائيل. ثمّ إنّ بعض المترجمين الفلسطينيين ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وانتشرت الترجمة في البلاد الإسلامية والعربية ممّا يتسنّى لكل إنسان اقتناؤه، وقد حصلت أنا على نسخة منها وقرأتها.

نعم إذا احتاج الغرب في التخلّص من نير القرون الوسطى إلى (عشرين ألف عنوان كتاب) احتجنا نحن الآن إلى (مأتي ألف) عنوان مع أنّ النسبة بين احتياجات ذلك الزمان وزماننا أبعد وأبعد.

الكتاب دعامة التقدّم

إحدى الأسباب الرئيسة لتقدّم غير المسلمين كما نراه اليوم هو اهتمامهم بالكتاب وتشويقهم المستمر لنشر الفكر التوعوي لأجيالهم من خلال طبع الكتب وما شابهها من المطبوعات، وقد رأيت في تقرير إنّ الكتاب المقدّس عند المسيحيين قد ترجم إلى ألف لغة، ولكن القرآن الحكيم قد ترجم إلى بضع وأربعمائة لغة فقط.

وقرأت في مجلّة «العربي»[١٠٧] الكويتية: أنّ ترجمة حياة «محمّد إقبال اللاهوري»[١٠٨] قد كتبت في خمسة آلاف كتاب وكراس بمختلف اللغات.

وفي بعض المجلات المغربية[١٠٩]: أنّ الحكومة الهندية جمعت آثار «غاندي»[١١٠] في ثلاثمائة مجلّد.

---

(١٠٧) انظر مجلّة العربي العدد ٤٠٣.

(١٠٨) من شعراء وفلاسفة الهند، ولد سنة ١٨٧٦م ومات سنة ١٩٣٨م، وله عدّة مؤلّفات باللغتين الأوردية والفارسية.

(١٠٩) انظر مجلّة «دعوة الحقّ» المغربية.

(١١٠) موهانداس كرامساند غاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨م) زعيم وطني هندي ومصلح اجتماعي ورائد فلسفة اللاّعنف في الحياة السياسية في عصره، ولد في مدينة (بوربند) الواقعة في مقاطعة غوجارات الهندية، لقّب بـ (المهاتما) أي (النفس السامية) أو (القدّيس)، دعا إلى تحرير القارة الهندية من سيطرة الاستعمار الإنجليزي بالطرق السلمية والمقاومة السلبية بعيداً عن العنف، قامت الأسس العقائدية والفكرية لنضاله على خلفيات دينية واقتصادية وسياسية في آن واحد، وهو في هذا المضمار قد تأثّر بالتعاليم من الكتب السماوية مثل (القرآن الكريم) و (الإنجيل) والتعليمات الروحية الهندوسية وبعدد من المؤلّفات، كما لا ينسى دور والدته في تربيته الدينية وبناء شخصيته أيام طفولته وصباوته، وقد تأثّر تأثّراً عميقاً بقضية عاشوراء التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وسبي أهل بيته عليهم السلام حتّى قال مقولته الشهيرة: (تعلّمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر)، أدّت جهوده الحثيثة إلى استقلال الهند عام ١٩٤٧م، كتبت عن شخصيته أكثر من ثلاثمائة كتاب، اغتاله برهماني متعصّب في عام (١٩٤٨م).

وقد ألّفت امرأة غربية (١١٤) كتاباً، طبع كتاب واحد منها بـ (١٠٣) لغة، وطبع من كتبها مئات الملايين، وقد رأيت نسخة منها باللغة العربية.

وبالمقابل فقد حرم المسلمون من الكتاب وفرضت الرقابات الشديدة على المؤلّفات في البلاد الإسلامية حتّى أصبح امتلاك البعض من الكتب يضاهي الكبائر العظيمة. وقد رأيت عندما كنت في العراق منذ قيام الجمهورية في انقلاب عبد الكريم قاسم إلى هذا اليوم، حيث يمرّ أكثر من أربعين سنة، كيف أنّ شبح الرقابة بقي جاثماً على الصدور.

ثروات المسلمين .. إلى أين؟

ممّا يؤسف له حقّاً أنّ ثروات المسلمين وخيراتهم الطائلة بدل أن تصرف في خدمة العقيدة ونشر الكتب القيّمة التي تبين للعالم فكر أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم، صرفت في الأمور التي لا تنفع المسلمين إن لم تصرف في الأمور الضارّة.

ففي بعض الإحصاءات: أنّ عدد الأُمّية في العالم العربي عام ١٩٩٦م بلغ ١٠٥ ملايين، ومن المتوقّع أنّ عددهم سيصبح في عام ٢٠١٠ ما يقارب ١١٥ إلى ١٢٠ مليون أُمّي[١١١].

ونقل أنّ ٤٧ % من السكّان العرب البالغين كانوا يجهلون القراءة والكتابة وذلك في منتصف التسعينات، وفي بعض التقارير أنّ نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة في العالم العربي هي: ٧ / ٥٤ وهي أقلّ نسبة في العالم[١١٢].

كما أنّ أكثر من نصف سكّان الهند وباكستان وبنجلاديش وأفريقيا من الأُمّيين.

وقد قرأت تقريراً حول نسبة التعليم والدخل المعيشي للكثير من الدول وكان يشير بأنّ النسبة غير متكافئة جداً، فبدل أن ترتفع نسبة المثقّفين المتعلّمين في البلاد نجد أنّ الكثير منها تعاني مشكلة الأُمّية والتراجع الثقافي الملموس.

بالطبع ليس هذا بغريب، إذ أنّ الحكومات تسخّر خيرات المسلمين لصالح الحكّام وشراء

---

(١١١) راجع مجلة العربي: العدد ٤٧٥ يونيو ١٩٩٨م.

(١١٢) راجع مجلة النبأ: العدد ٢٨ ص٣٨ السنة الرابعة.

أسلحة الدمار التي يتكالبون على شرائها من الغرب[١١٣].

ففي بعض التقريرات وجدت أنّ لصدام أربعين قصراً وقد بلغت تكاليف إحدى قصوره ما يقارب الأربع مليارات بينما يبقي الشعب العراقي المظلوم يعاني من الفقر والأُمّية.

ومن الواضح أنّ بقاء الجهل بين الشعوب الإسلامية وانتشار الأُمّية بين صفوفهم هو في صالح الحكومات المستبدة، فإنّ بقاء الناس بجهلهم خير من أن يعوا الحقائق ويطالبوا الحكّام بالعدالة وتطبيق القوانين الإسلامية.

بل إنّني شاهدت كيف أنّ الحكومات تحارب الواعين من الناس وذلك في قصص عديدة منها:

الساعة المثالية

إنّ شاباً من شباب العراق استطاع أن يصنع ساعة دقيقة ومضبوطة تعمل بلا نابض ولا جهاز نابضي، فلمّا عرفت به الحكومة العراقية آنذاك، استدعته بحجّة أنّها تريد مكافأته عليها، فلمّا ذهب بالساعة إلى بغداد، أخذت الحكومة الساعة وعاقبت الصانع، ثم لم نسمع بعد ذلك عن الصانع الشاب شيئاً، وبالطبع إنّه مات بحادث اصطدام مصطنع أو ما أشبه، مما دبّرته الحكومة للقضاء عليه وعلى صنعته.

محرّك بلا وقود

كما إنّي أتذكّر أيضاً أستاذنا في العراق السيّد الكاشاني رحمه الله [١١٤] فإنّه صنع جهازاً محرّكاً يعمل بدون وقود، فعرضه على الحكومة العراقية وطلب منها المعونة في تطويره وتكميله، فلم تعبأ به.

فاضطرّ إلى أن يكاشف به بعض البلاد الغربية ويطلب مساعدتها، لكن الحكومة العراقية منعت من مساعدته وضيّقت عليه حتّى توفّي (رحمه الله تعالى) وذلك قبل أربعين سنة تقريباً،

---

(١١٣) فقد جاء في بعض الإحصاءات أنّ إيران وحدها تنفق سنوياً ٣ بلايين دولار على شراء الأسلحة والمعدات العسكرية إضافة إلى الإنفاق الكبير على أجهزة الأمن وحماية النظام. الحياة العدد ١٢٥٤٨ ص١١.

(١١٤) السيّد زين العابدين الكاشاني، توفّي عام ١٣٧٥هـ ودفن في قم المقدّسة.

فمات ومات علمه معه ودفن مع صاحبه تحت التراب.

طب الأعشاب والعقاقير

وأتذكّر أيضاً كيف أنّ الحكومة العراقية كانت تحارب الطب القديم في العراق الذي كان قد اعتاده الناس ودأبت عليه المجتمعات في ذلك الزمان والذي كان يعالج المرضى ببساطة وسهولة، ويعرض عليهم خدماته بلا تكلفة ولا مماطلة، فكانت تسجن الأطباء وتلقي بعقاقيرهم الطبّية في الشارع.

كما كانت الحكومة تقضي على (العلق) الدويبة التي تمتصّ الدم الزائد من الإنسان، بإدّعاء أنّها خرافة، بينما قرأت في بعض التقريرات الحديثة أنّ أمريكا تشتري لمستشفياتها (العلق) من فرنسا وذلك بمبلغ عشرة دولارات لكل (علقة) وفرنسا تشتري هي بنفسها (العلقة) من روسيا كل علقة بدولارين.

وكذلك كان الأمر في إيران، فقد كانت الحكومات الإيرانية هي الأخرى أيضاً تمنع الطب القديم، مع أنّ إيران مهد صالح للأعشاب الطبّية حتّى ذكر خبراء طب الأعشاب في كتبهم الطبّية: أنّ أرض إيران ينبت فيها مائة ألف قسم من الأعشاب الطبية النافعة.

وكان هناك زمن البهلوي الأول طبيباً حاذقاً يعالج المرضى بالعقاقير والأعشاب، ويصدر جريدة خاصّة في هذا الشأن، فكانت الحكومة الإيرانية تلاحقه وتطارده حتّى اختفى عن الأعين والأبصار، ولم يعلم هل أنّها قتلته بحادث اصطدام مفتعل، أو بوسيلة أخرى دبّرتها له فقضت عليه.

الباكستان عندما انفصلت عن الهند

وفي باكستان ـ مثلاً ـ عندما انفصلت من الهند وصارت مستقلّة لذاتها وشكّلت حكومة إسلامية لنفسها، طلب رئيس حكومتها محمد علي جناح[١١٥] من أحد أصدقائه المتخصّصين في علم الاقتصاد، والذي كان قد غادر باكستان وسكن الغرب، ليعود إلى باكستان فيشاركه في حكومته الجديدة، ويشغل منصب وزارة المالية والاقتصاد.

---

(١١٥) جناح، محمّد علي سياسي وأديب باكستاني، ولد عام ١٨٧٦ وتوفّي سنة ١٩٤٨م وقد كان رئيس (الحلف الإسلامي) ومؤسّس دولة باكستان وأول رئيس لها عام (١٩٤٧م).

فلبّى الصديق المسلم، والمتخصّص في علم الاقتصاد طلب صديقه القديم الرئيس محمّد علي جناح، وعاد إلى باكستان بعد أن صفّى أُموره هناك في المهجر، لكنّه عندما هبطت به الطائرة في مطار باكستان فوجئ قبل نزوله من الطائرة بتسليم رسالة رسمية من الرئيس جاء فيها ما مضمونه:

صديقي العزيز! لقد تحمّلت عناء السفر والعودة إلى بلدك باكستان الإسلامية، فأهلاً ومرحباً بك، غير إنّي انصرفت عمّا كنت قد اقترحته عليك من التصدي لمنصب وزارة المالية والاقتصاد، وفضّلت أن تكون مواطناً لنا كبقية المواطنين، ثمّ وقّع تحته بالتوقيع التالي:

أخوك: الرئيس محمّد علي جناح.

كانت هذه الرسالة كالصاعقة تنزل على قلب هذا الصديق المسلم، والمتخصّص في علم الاقتصاد، وكالعاصفة تعصف بروحه ونفسه، وتأخذ بهواجسه وعواطفه، وتدعوه إلى الرجوع في أرض المهجر، والعودة إلى بلاد الغرب، فرجع من حيث أتى، وهو متألّم ممّا جرى، ومتأسّف على ذلك، وأخذ يتحرّى عن الحقيقة الكامنة وراء دعوته، ويتطلّع إلى الأسباب التي انتهت بالاعتذار منه، فهو يعرف صديقه الرئيس كاملاً، ويعلم بأنّه وفي وشفيق، فلماذا دعاه للوزارة ثم اعتذر منه قبل أن يلتقي به؟ إنه أمر مريب، يتطلّب التحقيق والتعقيب، فعقّب ذلك وواصل تحقيقاته عنه حتّى وصل إلى النتيجة التالية:

إنه لما درس الاقتصاد في الجامعة وأكمل دراسته بنجاح قدّم حينئذ للحصول على شهادته الجامعية في الاقتصاد، تحقيقاً دقيقاً كتبه عن الاقتصاد الربوي وآثاره السيّئة في المجتمعات، وأضراره الفادحة على الناس، وأثبت بالأرقام أنه من الأسباب الرئيسية لسيطرة البلاد الاستعمارية على البلاد الإسلامية، حيث إنّ المستعمرين يفقّرون البلاد الإسلامية بسبب الحروب وغيرها، ويضطرونهم إلى أخذ السلفة من الدول الاستعمارية والاستقراض منها مع فوائد كبيرة وباهضة، وبمجرد الاستقراض يدخل البلد المستقرض بشعبه وثرواته في سيطرة البلاد المقرضة، ويكون من مستعمراته لكن مغلّفاً وتحت ستار الاستقلالية، وذلك لما يفرض عليه من فوائد ضخمة وأرباح مضاعفة، وخاصّة إذا تأخّر موعد تسديد الديون، حيث تتضاعف الفوائد إلى عدّة أضعاف مقدار أصل الدَين.

ثمّ يرى أنه قد واصل بحثه في تحقيقه ذلك بقوله: إنّ الإسلام كان يعرف هذه الويلات

التي تجرّها الربا على الشعوب، ولذلك حرّمها وحرّم التعامل بها، وجعل معاطيها معلناً للحرب على الله ورسوله.

ثمّ إنه بعد أخذ شهادته العالية في الاقتصاد، يقدّم دراسته التحقيقية هذه، التي كتبها في فلسفة تحريم الإسلام الاقتصاد الربوي، التي تعرّض فيها لبعض الأضرار والويلات الناجمة من تعاطي الربا، إلى الطبع والنشر.

فلمّا خرج إلى عالم النور وانتشر في الأسواق، وصلت نسخة منه إلى وزارة الاستعمارات البريطانية آنذاك، وذلك عبر أياديهم المتسلّلة في الأوساط الاجتماعية، والمنتشرة في كل البلاد الإسلامية حتّى هذا اليوم، أو إلى وزارة الخارجية عبر السفارات المتواجدة اليوم في كل العواصم، فإنّهم قد أوكلوا فيها من يبعث لهم كل كتاب جديد يصدر إلى الأسواق، وقد وصل بالفعل هذا الكتاب إلى وزارة الاستعمارات البريطانية، وبعد المطالعة والتعرّف على موضوعه الذي رأوه يناقض مصالحهم الاستعمارية خطّوا عليه بالقلم الأحمر، وحذّروا من وصول صاحب الكتاب إلى منصب وزاري، أو مقام اقتصادي، خوفاً من تطبيق الاقتصاد الإسلامي الناهض للاقتصاد الربوي الاستعماري والذي يعرّض منافعهم الاستعمارية وأطماعهم السياسة للخطر.

ولما أرسل الرئيس جناح، طلباً إليه يدعوه لتصدّي منصب وزارة الاقتصاد، اطّلعت وزارة الاستعمارات البريطانية عبر أياديها المتسلّلة في الأوساط الحاكمة على ذلك، فعملت وبكل جدّية وخفاء، وبواسطة عملائها المتسلّلين في صفوف القيادات العليا والمقدّسين من كافّة الطبقات وخاصّة الحاكمة منها، على تغيير رأي جناح بالنسبة إلى صديقه، حتّى استطاعت وبكل حذاقة من إقناع جناح على إعلان انصرافه عمّا كان ينويه من تسليم حقيبة وزارة المالية والاقتصاد إلى صديقه المتخصّص في الاقتصاد، وإبلاغ انصرافه وبسرعة فائقة إلى ذلك الصديق، وهو بعد لم ينزل على أرض المطار ولم يواجهه بعد أو يلتق به.

وهكذا اكتشف هذا العالم الاقتصادي الذي كان صديقاً لجناح، أسرار المؤامرة الاستعمارية، التي استهدفته بالذات، وتمكّنت من إقصائه عن استلام حقيبة وزارة المالية والاقتصاد في حكومة إسلامية يرأسها صديقه القديم جناح، فقضت السلطات الاستعمارية بذلك على طاقاته بعد تجميدها، وحرمت الشعب الباكستاني المسلم من إصلاحاته

الاقتصادية.

الكتاب وإحياء التراث

من فوائد الكتاب والكتابة هو حفظ التراث وصيانته من التحريفات ليصل إلى الأجيال اللاحقة البعيدة عن عصر ظهور الإسلام. فلولا أنّ أعلام المسلمين كتبوا الكتب ودوّنوا التراث الإسلامي لضاع المسلمون اليوم ولحرّف الإسلام تماماً كما هو الحال بالنسبة لسائر الديانات الأُخرى.

فلولا الشيخ الكليني قدس سره وجهوده المكثفة من أجل تأليف كتابه القيّم الكافي الشريف لضاع الكثير من روايات الشيعة، ولولا جهود الصدوقين والشيخ الطوسي وأمثالهم من مفاخر الإمامية لتغيّرت معالم المذهب.

من هنا نذكر القصص التالية لتدل على شدّة معاناة أمثال هؤلاء العلماء الأعلام ومثابرتهم عبر التأليف وغيره من أجل حفظ تراث أهل البيت عليهم السلام وإيصاله للأجيال اللاحقة.

نذر أن يكتب تفسيراً

في سنة (٥٤٨هـ) توفّي صاحب كتاب تفسير «مجمع البيان» وهو أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي[١١٦] في سبزوار، ونقلت جنازته إلى المشهد الرضوي المقدس، ودفن في المقبرة المعروفة بـ «قتلكاه».

وقد نقل صاحب «روضات الجنّات» عن صاحب «رياض العلماء»، قال: ومن عجيب أمر هذا الطبرسي بل من غريب كراماته، ما اشتهر بين الخاص والعام، أنّه قد أصابته

(١١٦) فضل بن حسن بن فضل الطبرسي أبو علي الملقّب بالأمين، عالم فاضل جليل القدر له مؤلّفات منها تفسير مجمع البيان وتفسير جامع الجوامع الذي يقع في أربعة مجلّدات. ونقل أنّه لما شرع في تفسيره مجمع البيان كان عمره قد تجاوز الستين، ولما شرع بتفسيره الجامع كان قد تجاوز من العمر السبعين، وله تفسير موجز في مجلّد واحد، وله كتاب إعلام الورى، توفّي قدس سره عام ٥٤٨هـ ودفن في المشهد الرضوي.

السكتة، فظنّوا به الوفاة، فغسلوه وكفّنوه ودفنوه ثمّ رجعوا، فلمّا أفاق وجد نفسه في القبر، وقد سدّ عليه سبيل الخروج عنه، من كل جهة، فنذر في تلك الحالة أنه إذا نجى من تلك الداهية، ألّف كتاباً في «تفسير القرآن».

فاتّفق أنّ بعض النبّاشين قصده لأخذ كفنه، فلمّا كشف عن القبر أخذ الشيخ بيده، فذهل النبّاش ممّا رآه، ثمّ تكلّم معه، فازداد ذهولاً، فقال له: لا تخف أنا حي، وقد أصابتني السكتة فدفنوني، ولما لم يقدر على النهوض والمشي من غاية ضعفه حمله النبّاش على عاتقه، وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه خلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النبّاش، ثم إنه بعد ذلك وفى بنذره وشرع في تأليف كتاب «مجمع البيان».

وتنسب هذه القضية أيضاً إلى فتح الله الكاشي، حيث قيل إنه ألّف بعد نجاته من تلك الواقعة تفسيره الكبير، المسمّى بـ «منهج الصادقين».

مع العلامة الحلي

يعتبر العلاّمة الحلّي قدس سره من نوادر الزمان الذين قلّما يجود بمثلهم الدهر، حيث كان عالماً فقيهاً جامعاً مجدّداً للدين، أقام الشريعة ودافع عن حريم التشيّع رغم كثرة المخالفين له.

ومن ميزات هذا العالم الجليل أنّه كان كثير التأليف والكتابة حتّى نقل في أحواله أنه كتب ألف كتاب رغم اشتغاله الدائم بالتعليم والتدريس والأسفار ومناظراته مع الجمهور.

وقد نقل في أحواله العديد من القصص المفيدة الدالّة على عظمة شخصيّته وغزارة علمه، منها أنه كان لا يدع أيّة لحظة من عمره تذهب هباء، بل كان يستفيد من اللحظات والدقائق ولذا فإنه كان يكتب في أسفاره وهو راكب.

فممّا ذكر في أحواله أنه كان في أيام الخميس يقصد كربلاء المقدّسة من الحلّة وهو على حماره ويرجع يوم الجمعة، لكنّه كان إذا ذهب إلى كربلاء ورجع لا يترك الوقت يذهب سدى بل ينتهزه للكتابة وهو على دابته ممّا سبّب عدم تمكّن أحد من قراءة خطّه إلاّ ولده فخر المحقّقين فإنه هو الذي بيّض مسودّات والده التي كتبها على الدابة، واليوم بعد مضي ما يقارب سبعة قرون قد بقي العلاّمة الحلّي قدس سره علماً من الأعلام في الحوزات العلمية.

مع صاحب الجواهر

إنّ صاحب الجواهر قدس سره [١١٧] قد أتعب نفسه الشريفة ليل نهار حتّى خلّف كتابه (الجواهر) الذي يعتبر محطّ استفادة للكثير من العلماء، وقد نقل في أحواله: أنه كان له ولد طيّب بار بوالده مجدّ في توفير معيشته فمات هذا الولد فحزن صاحب الجواهر عليه حزناً كبيراً وظلّ يفكّر في أمرين

الأول: أنه من يعيّشه حتى يتم الجواهر فإنه لا يريد الاشتغال بالمعاش ليذهب من وقته.

الثاني: أنه ما هو مصيره في الآخرة، هل هو من أهل السعادة أو لا؟ لأنه في الغالب يكون الأمر مجهولاً للإنسان بالنسبة إلى الدار الباقية.

وحيث إنّ وفاة هذا الولد كان قريباً من الليل وضعت جنازته في البيت حتّى يأتي الصباح ويجتمع المشيعون لتجهيزه، فأخذ صاحب الجواهر الورق والقلم والكتاب والمحبرة كعادته في كل ليلة، ولكنه قد جلس على جنازة ولده وأخذ يكتب ويبكي، ويكتب ويبكي، وهكذا حتّى الصباح، ثمّ لما نقلوا الجنازة إلى الحرم المقدّس كان صاحب الجواهر في التشييع ولما دخل إلى الصحن سمع هاتفاً غيبياً يقول له (نحن خير لك منه، ونحن خير له منك) وكان الأمر كما سمع فإنه قد درّ عليه الرزق من بعد الولد ممّا سبّب إتمام الجواهر بدون أن يشتغل بالمعاش وقد صار علماً من علماء المسلمين يذكر إلى اليوم في الحوزات العلمية رحمه الله.

وكذلك ينقل في أحواله أنه كان إذا ذهب إلى المقبرة لأجل قراءة الفاتحة للأموات استصحب معه الكتاب والورق والقلم والمحبرة فإذا جلس هناك عند قبر ولده أو سائر القبور أخذ يكتب الجواهر حتى في هذه المدّة القصيرة، فكان بعد قراءة الفاتحة والسورة يشتغل بالتأليف حيث كان يرى اشتغاله بالعلم أولى من قراءة سائر المستحبات.

وقد ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاطب به أبا ذرّ قائلاً: يا أبا ذرّ «ساعة في مذاكرة العلم أحب إلى الله من قراءة القرآن كلّه اثنا عشر ألف مرّة»[١١٨].

---

(١١٧) الشيخ محمّد حسن بن الشيخ باقر ولد في حدود سنة ١٢٠٠ أو ١٢٠٢هـ حسب تقدير الآغا بزرك الطهراني قدس سره، وقد نشأ وترعرع في أحضان أُسرة علمية عريقة من حيث الأُمّهات والآباء. وقد شهدت الحوزات العلمية في عصره ازدهاراً واضحاً وكان للشيخ دور واضح في هذه الحركة العلمية. وقد ألّف الشيخ حسن رحمه الله مؤلّفات عديدة أبرزها هو كتابه (الجواهر) تلك الدورة الفقهية العظيمة التي بقيت كمركز استفادة للطلاّب والفقهاء على مرّ الزمان.

(١١٨) بحار الأنوار: ج١ ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ب٢ ح٢١.

استقامة في طلب العلم

كان الحاج الميرزا مهدي النراقي رحمه الله[١١٩] صاحب كتاب «معراج السعادة» وكتب أُخرى في أيّام التحصيل بمنتهى الفقر وخلو اليد لدرجة لا يتمكّن معها مِن تهيئة فانوس للمطالعة، وكان يستفيد مِن ضياء الفوانيس الموجودة في أماكن أُخرى من المدرسة.

ومع هذه الشدّة والضيق في المعاش كان شديد التعلّق والرغبة بطلب العلم، حتّى أنّ الرسالة التي كانت تأتيه من موطنه لا يفتحها ولا يقرأها خوفاً من أن يكون فيها مطلب يكون باعثاً لتشتّت حواسه، ويمنعه من الدرس، وكان يضع الرسائل مختومة كما هي تحت البساط.

وكان أبوه (أبو ذرّ) قد قتل، فكتبوا إليه يخبرونه بقتله، فوضع كعادته الرسالة تحت البساط أسوة ببقية الرسائل، وبعد أن يأس منه الأهل والأقارب كتبوا إلى أستاذه وأخبروه بالحادثة وطلبوا منه أن يخبره بالأمر، وأن يرسله إلى قرية نراق لأجل إصلاح أمر التركة والورثة.

فلمّا حضر النراقي رحمه الله الدرس أخذ بيده الأستاذ وكان مغتمّاً، فسأله النراقي: لماذا أراك مغتمّاً وحزيناً؟

أجاب الأُستاذ: ينبغي عليك الذهاب إلى نراق.

فقال النراقي: لأجل مَن؟

قال: إنّ والدك كان مريضاً.

فقال النراقي: إنّ الله سيحفظه ويعافيه، فابدأ بالدرس.

فصرّح الأُستاذ إليه بمقتل والده، وأمره أن يتوجّه إلى نراق.

فامتثل الأمر وذهب ولم يبق أكثر من ثلاثة أيام هناك ثم عاد بعدها، وعلى هذا المنوال كان النراقي رحمه الله يطلب العلم حتّى بلغ مكانة سامية فيه.

وممّا نقل في أحواله قدس سره أيضاً أنّه كان يطالع ويؤلّف ولم يكن عنده ضياء يستضيء بنوره، ولذا كان يذهب إلى بيت الخلاء في المرافق العامّة ويؤلّف.

---

(١١٩) الملاّ مهدي النراقي ابن أبي ذرّ النراقي الكاشاني، كان عالماً فائقاً لعلماء عصره، درس ثلاثين عاماً عند الملاّ إسماعيل الخاجوئي وله مؤلّفات قيّمة منها: القوامع في الفقه، والأنيس، والمعتمد، والتجريد، ومحرق القلوب في مصائب أهل البيت عليهم السلام.

الكتابة تحت ضوء القمر

كان السيّد نعمة الله الجزائري رحمه الله [١٢٠] من تلامذة العلاّمة المجلسي قدس سره المقرّبين، وقد تحمّل الكثير من الصعاب والمشقّات في طلب العلم، وفي أوائل أيام تحصيله لما لم يكن متمكّناً من تهيئة سراج، كان يستفيد من ضوء القمر للمطالعة، حتّى ضعف بصره من كثرة المطالعة والكتابة على نور القمر، وكان يضع في عينيه من التربة المقدّسة لسيّد الشهداء عليه السلام طلباً لتقوية نور بصره، وببركة تلك التربة فقد قوي نور بصره.

الجدير ذكره أنّ المحدّث القمّي رحمه الله [١٢١] لما نقل هذه الحكاية قال: حينما يستولي الضعف على عيني نتيجة زيادة المطالعة والكتابة، أتبرّك بتربة مراقد الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وأحياناً أمسح كتب الأحاديث والأخبار عليها، والحمد لله أنّ عيني إلى الآن في غاية القوّة والإبصار، آملاً أن ينوّر الله عيني في الدنيا والآخرة ببركتهم.

الكتابة في ساحات الجهاد

تناول العلامة السيد الأمين رحمه الله في كتابه «أعيان الشيعة» الجدّ والسعي المتواصل للسيد جواد العاملي صاحب «مفتاح الكرامة» قائلاً: كان رحمه الله في الجد وتحصيل العلم قليل النظير، وقد أفنى عمره في الدرس والتدريس والبحث والمطالعة والتأليف وخدمة الدين، وكان

---

(١٢٠) السيّد نعمة الله ابن السيّد عبدالله ابن السيّد محمّد الجزائري، ولد في المنطقة الجنوبية من ايران سنة ١٠٥٠هـ وتوفّي في الثالث والعشرين من شوال ١١١٢هـ ، وكان عالماً فاضلاً ومحقّقاً مدقّقاً ومتضلّعاً في اللغة العربية وآدابها وفي الفقه والحديث، ويعدّ من تلاميذ المجلسي والسيّد هاشم البحراني والفيض الكاشاني.

ترك ثلاثاً وأربعين كتاباً وتعليقة منها: غاية المرام في شرح تهذيب الأحكام، شرح روضة الكافي، البحور الزاخرة في شرح كلام العترة الطاهرة، أُنس الوحيد في شرح التوحيد، الأنوار النعمانية في معرفة النشأة الإنسانية.

(١٢١) هو الشيخ عبّاس محمّد رضا القمّي عالم عامل ثقة عدل متتبّع بحّاثة عصره أمين مهذّب زاهد عابد صاحب المؤلّفات المفيدة، تتلمّذ على الشيخ حسين النوري صاحب مستدرك الوسائل، له مؤلّفات كثيرة منها كتاب هداية الأحباب وكتاب الفوائد الرضوية وكتاب الكنى والألقاب ومفاتيح الجنان في الأدعية والزيارات لأئمّة الهدى، توفّي عام ١٣٥٩هـ .

يستغرق وقته ليلاً ونهاراً في ذلك، دون أن يحدث له ضعف أو اضطراب، وكان مشغولاً بالبحوث العلمية حتى في أيام الأعياد وليالي القدر من شهر رمضان، واستمرّ على هذه الحال حتى سنّ الشيخوخة وكلّه رغبة ونشاط في هذا المضمار، وكان لا ينام من الليل إلاّ قليلاً، ولما سئل: ما هي أفضل أعمال ليلة القدر؟

أجاب: بإجماع علماء الإمامية هو الاشتغال بطلب العلم.

وفي أيام محاصرة النجف من قبل الوهّابية بين سنوات (١٣٣١ و١٣٣٦هـ) كان العلماء مع الأهالي يقومون بالدفاع عن المدينة، وفي الوقت الذي كان يشارك العلماء في الجهاد والمحافظة على المدينة ووسائل الدفاع وتشجيع المجاهدين والحرّاس وترغيبهم، تراه لا يفتر قلمه عن التأليف والتدريس، فقد كتب في تلك اللحظات رسالة في وجوب الدفاع عن النجف، كما استمرّ في كتابة بعض مجلّدات «مفتاح الكرامة» مثل: مجلّد الضمان والشفعة والوكالة وكان له من العمر حدود السبعين.

ومن الشواهد الجليلة على جدّه في التأليف: أنه في نهاية العديد من مجلّدات «مفتاح الكرامة» تراه يكتب: (قد تمّ الفراغ منه ليلة كذا) وذكر في مجلّد الوقف (قريب منتصف الليل)، والمجلّد الثاني من الطهارة (في الربع الأخير من الليل) ومجلّد الوكالة (بعد منتصف الليل) ومجلّدين من الشفعة (في الليل) وبعض المجلّدات الأُخرى (في ليلة القدر) أو (ليلة عيد الفطر).

وفي آخر مجلّد الإقرار من «مفتاح الكرامة» كتب: في شهر رمضان من هذه السنة كتبت ثمانية أو تسعة أو عشرة أجزاء من الأبحاث، إضافة إلى الأعمال الأُخرى التي أقوم بها في شهر رمضان، وما تركت الكتابة إلاّ لبعض المؤثّرات التي كانت سبباً للتعطيل.

ونقل حفيده السيد جواد بن السيد حسن فقال: كانت ابنة صاحب «مفتاح الكرامة» سيّدة جليلة القدر ومشهورة بالتقوى والعبادة وكانت قد عاشت خمسة وتسعين عاماً من العمر، دون أن تعاني من ضعف الحواس أو عدم القدرة، وكانت تقول: إنّ والدي ما كان ينام الليل إلاّ قليلاً من الوقت، ولم يتّفق لي أن رأيته وهو نائم بل كان مستيقظاً على الغالب مشغولاً بالمطالعة والكتابة.

ونقل حفيده الشيخ رضا بن زين العابدين العاملي الذي كان مدّة في بيته وكان ينام بعد

الفراغ من مطالعاته في الليالي فقال: كنت أرى جدّي يقظاً ومشغولاً بعمله، وكان يلتفت إلى حفيده ويقول: ما هذا العشق بالنوم، وهذا المقدار الذي نأخذه من النوم يكفينا، وكان يضع رأسه على يده، ويغفو إغفاءة قصيرة جدّاً، ثم يعود إلى عمله، وأحياناً يوقظ حفيده لصلاة الليل، ويقوم هو بالمطالعة.

وكان معروفاً بين العلماء في زمانه وحتى موته بالدقّة والضبط وصفاء الذات، وكان يرجع إليه كبار العلماء لحلّ المسائل المشكلة فيأخذون منه الجواب أو يطلبون منه تأليفاً في ذلك، وكان تأليف كتبه بالتماس أساتذته: كالشيخ جعفر كاشف الغطاء، والسيد صاحب الرياض وغيرهم (قدس الله أسرارهم).

كتاب التفسير حتى في الحرب

روي في وصف المرحوم الآقا نور الدين العراقي ﷺ أنه كان من أهل الكشف والكرامات ومن أهل الحقيقة، وكان في جبهة الحرب، يأخذ القلم والورق ويكتب تفسير القرآن!

وهذا يدل على شدة ضبطه، فلو كان غيره لاشتبه في كلامه اليومي، ولم يميّز المبتدأ عن الخبر فكيف تكون مشاعر الإنسان في داخل جبهة الحرب بهذه الكيفية، ولكن هذا الشخص كان جالساً يقرّر ويضع التصاميم، ويكتب تفسيراً مثل هذا بكل دقّة وإتقان.

وكم يؤسف له أنّ الانشغالات منعته من إكمال هذا التفسير وكان في ذلك الوقت في مدينة «أراك» وكانت ترد عليه الأسئلة والاستفتاءات من الأطراف والأكناف والقرى، إضافة إلى المراجعات في الأُمور الأُخرى.

ولم يكن المرحوم الآقا نور الدين في المسائل محتاجاً إلى كتاب، فكل هذه الاستفتاءات التي ترد عليه، لم يذكر أنه قال: ائتوني بالكتاب الفلاني حتى أرى ما فيه، بل كان حاضر الجواب، وحتّى عند كتابة تفسيره لم يكن لديه كتاب لغة وتاريخ وتفسير، بل كتبه بعقله ومحفوظاته من العلوم.

مع مؤلّف كتاب إظهار الحقّ

نقل أنّه ظهر من بين علماء الهند، عالم انتهج نهج الشيخ محمّد جواد البلاغي، ولكن لا

في فضح اليهود وإبطال خرافاتهم، بل في كشف المسيحيين، فقد ألّف كتاباً جميلاً في هذا المجال وسمّاه: (إظهار الحقّ) وهو كتاب مطبوع وموجود في الأسواق. وقد نقل لي ذات مرّة السيّد حسن آقا مير المشهور، صاحب كتاب (الإمامة الكبرى): أنّه كان يذهب إليه في داره في النجف الأشرف، وكان يراه رحمه الله في حرّ النجف الشديد يتجنّب النزول إلى السرداب ويقول: إنّ النزول إلى السرداب يوجب الكسل للإنسان، ويؤخّره عن أعماله، ويثبّطه عن أداء واجبه، وإنّما كان يجلس في غرفة من غرفات داره وكانت حارّة شديدة الحرارة، ويأخذ في التأليف.

يقول السيّد حسن حاج آقا مير رحمه الله:

وكان العالم المذكور أستاذي في كتاب المكاسب، فقد درست بعضاً من مكاسب الشيخ الأنصاري قدس سره عنده.

وقال أيضاً عنه: إنّه كان مع جهده اللاّمنقطع وسعيه الحثيث مصاباً بمرض نفث الدم، ولكن لم يكن ذلك صادّاً له عن مواصلة أعماله، ومتابعة تأليفاته.

مع المحدث القمي

نقل ناقل عن المرحوم الشيخ عباس القمّي رحمه الله فقال: كنت أذهب من مدينة (أراك) إلى (قم المقدسة) في سيارة لي وإذا بي أرى الشيخ عباس القمّي في أثناء الطريق في الصحراء المقفرة جالساً على الأرض وهو يكتب، فتقدّمت إليه وسلّمت عليه وقلت له: شيخنا ماذا تفعل في هذه الصحراء المقفرة وكيف جئت إلى هنا ومن جاء بك وما هذا الذي تكتب؟

فقال رحمه الله: كنت في سيارة قاصداً من أراك إلى قم وفي أثناء الطريق تعطّلت السيارة فجاء السائق وأمر بنزولي قائلاً: إنّ توقّف السيارة من شؤمك فانزل وأرحنا، ثم أنزلني قهراً، فنزلت مكرهاً آنذاك وفكّرت أن أشرع بالتأليف بدل أن يذهب وقتي هدراً.

كانت هذه القصة في أيام البهلوي الأول[١٢٢] الذي حارب الدين ورجال العلم بأمر من

---

(١٢٢) رضا خان بهلوي (١٢٩٥ ـ ١٣٦٣هـ = ١٨٧٨ ـ ١٩٤٤م) شاه إيران عام (١٣٤٣ ـ ١٣٥٩هـ) كان ضابطاً من ضباط الجيش الإيراني، أطاح بأسرة قاجار الحاكمة وأعلن نفسه شاهاً على إيران عام (١٩٢٥م) وحكم البلاد بالاستبداد ثمّ اضطرّ إلى التنازل عن العرش لابنه محمّد رضا بهلوي.

أسياده المستعمرين الذين جاءوا به.

قال الرجل: فقلت للشيخ وكم لك في هذه الصحراء؟

قال: ما يقارب الساعتين.

قال: فأخذته في سيارتي وجئت به إلى قم.

وقفة أُخرى مع القمّي ﷺ

ونقل أيضاً في أحوال المحدّث القمّي ﷺ أنّه سافر مع جماعة من التجار إلى سوريا، فكان ﷺ منكبّاً على التأليف والمطالعة باستثناء أوقات الصلاة والزيارة، وحينما كان رفقاؤه يخرجون للتنزّه يصرّون عليه أن يخرج معهم، إلاّ أنّه كان يأبى ذلك، بل كان ﷺ يسهر الليل في المطالعة والتأليف.

الحرب الثقافية

على الرغم من أنّ أعداء الإسلام أتاحوا المجال على مصراعيه أمام رواج الكتاب في بلادهم إلاّ أنّهم في نفس الوقت أخذوا يحاربون الكتب الإسلامية والتوعوية في بلادنا، وعمدوا إلى نشر كتبهم المنحرفة بين المسلمين ليتأثّروا بثقافتهم ويتبعوهم في عقيدتهم، فبدؤوا حرباً ثقافية ضد المسلمين.

ومع الأسف الشديد فقد نجحوا في خطتهم هذه بشكل ملحوظ وذلك بمعونة الحكّام الظلمة في البلاد الإسلامية، فابتعد المسلمون عن الكتب وانعكفوا على شهواتهم وملذّاتهم، وربما مشاكلهم ومآسيهم.

والملفت للانتباه هو شدّة صمودهم واستقامتهم على باطلهم وتراجع المسلمين عن التبليغ لعقيدتهم ونشر الكتب الإسلامية التوعية الداعية إلى الحقّ رغم أحقّيتهم وتسديد الباري تعالى لهم.

وهذه نماذج من اهتمامهم على نشر ثقافتهم بين المسلمين حتى أصبحوا يتبعونهم ويسيرون على نهجهم.

كيف نشروا المسيحية؟

قبل ستين سنة تقريباً كنت في النجف الأشرف وكان يأتي في كل عيد إلى النجف مسيحي من بغداد ويقف في السوق الكبير ويعطي كل من يشاهده كتاب العهدين المحمّل على عاتق حمّال ثمّ يرجع.

علماً أنّهم يعلمون أنّ الكثير من المسلمين خاصة في المناطق المقدّسة ومراكز العلم أمثال النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة وقم المقدّسة ومشهد والكاظمين وسامراء وغيرها من البقاع المباركة من الصعب جدّاً أن يتأثّر أهل هذه المناطق بالمسيحية إلاّ أنّهم يصرّون على نشر كتبهم والتبليغ لعقيدتهم.

من أنشطة الوهّابيين

نقل لي أحد الأصدقاء الذين وفّقوا للحجّ وتشرّفوا إلى زيارة بيت الله الحرام قبل سنوات القصّة التالية قائلاً: لقد التقيت بعضو من أعضاء إدارة توزيع الكتب في المدينة المنوّرة وطلبت منه شيئاً من الكتب.

فقال لي: أظنّك رجل دين؟

قلت: نعم.

قال: اذهب إلى المخزن وخذ ما شئت من الكتب.

قال: فذهبت إلى المخزن وإذا بي أرى بناية ضخمة، ومكاناً واسعاً جدّاً وهو يشتمل على ردهات وصالات مملوءة من أرضها إلى سقفها بالكتب المتنوّعة وباللغات المختلفة من العربية والفارسية والتركية والهندية والإندونيسية وغيرها.

قال: فأخذت جملة من تلك الكتب وبقدر ما يمكنني حمله وخرجت، ثمّ جئت بها إلى قم وقد قدّرت سعرها بالعملة المحلّية في ذلك الوقت فكانت ما يقارب من عشرين أو ثلاثين ألف تومان.

أقول: لقد رأيت أنا بعض تلك الكتب وطالعتها، فوجدتها تدعو إلى الوهّابية وتزرع الفُرقة بين المسلمين، وتؤلّب بعض المسلمين ضدّ بعض، يعني: على خلاف ما أمر الله به

وبلّغ له رسوله ﷺ من قوله تعالى: ﴿وإنّ هذه أُمّتكم أُمّة واحدة﴾[١٢٣] وقوله سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا﴾[١٢٤].

كما ذكرت بعض الصحف[١٢٥]: إن السعودية قدمت بليون دولار لرابطة العالم الإسلامي وهي رابطة وهابية.

هكذا يروجون كتبهم

نقل أحد علماء طهران الذي يناهز عمره الثمانين، فقال: قبل حوالي ٧٠سنة وكنت آنذاك طفلاً أذهب إلى الكتاتيب، في إحدى المدن المقدّسة في العراق، بينما كنت أذهب في الصباح الباكر إلى المدرسة إذا بي أرى في السوق الكبير ازدحاماً وتجمّعاً كبيراً، فاتّجهت إلى مركز التجمّع وإذا بي أرى رجلين يحمل أحدهما على رأسه كمية من الكتب وهو يعطي كل رجل كتاباً، وكان رفيقه يعطي لكل إنسان أخذ كتاباً عشر روبيات، أي ما يعادل مثقالاً من الذهب، ذلك اليوم.

يقول: تقدّمت وأخذت كتاباً وعشر روبيات، وأنا لا أعرف ماهية الكتاب، وعندما رجعت إلى الدار وأعطيته لمن في المنزل تبيّن أنه كتاب يبشّر للمسيحية!

حملات التنصير في بنغلادش

كتبت أخيراً إحدى الصحف عن جمعية خيرية تنصيرية في أمريكا بأنّها أرسلت إلى بنغلادش مائتي ألف كتاب، وقد وزّعت تلك الكتب على ما يقارب من أربعة آلاف إنسان أو أكثر، وذلك بغية تنصيرهم وتبديل دينهم وعقيدتهم، علماً بأنّ بنغلادش بلدة مسلمة وشعبها مسلم إلاّ ما شذّ وندر.

ومن المعلوم: أنّ ظاهرة توزيع الكتب التي دأبت عليها جمعيات التبشير والتنصير ليست ظاهرة بتراء، وإنّما وراء هذه الظاهرة دعوة إلى الكنيسة، وإلى طقوسها العبادية، وإلى اعتناق

---

(١٢٣) سورة المؤمنون: ٥٢.

(١٢٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

(١٢٥) انظر صحيفة الحياة، العدد ١٢٦٠٣ ص٢٤، الاثنين ١ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٧ الموافق ٢٩ ربيع الآخر ١٤١٨هـ.

المسيحية والانسلاخ عن الإسلام.

من أساليب التبليغ

أرسلت صديقاً إلى شمال العراق، للتبليغ في شهر رمضان، وبعد أن رجع سألته عمّا شاهد هناك؟

قال: جاء مسيحي ومعه عربة مليئة بالعهدين يقودها حمّال، فكان يعطي لكل إنسان كتاباً ومعه مائة دولار، وهكذا حتّى أتمّ كل ما في العربة.

تبليغ بالإجبار

ذات مرّة رجعت من مرقد الإمام الكاظم عليه السلام قاصداً كربلاء المقدسة فوقفت السيارة أمام الإشارة الحمراء على الجسر وإذا بي أرى حفنة من الكتب . وكانت عشرة . تلقى في السيارة التي كنت راكباً فيها، وفي كل سيارة سيارة واقفة بالانتظار، وكان الملقي مسيحي له ملابس المسيحية، ولما رجعت إلى كربلاء رأيت أنّها كتب مختلفة مسيحية ولعلّ قيمتها كانت فوق الدينار[١٢٦] في ذلك اليوم.

التبشير إلى المسيحية

نقل لي بعض الأصدقاء القصّة التالية فقال: كنت أعمل في سوق الصفّارين ببغداد وهو سوق كبير، والعاملون فيه كلّهم مسلمون، وكنت واحداً من الصفّارين وقد كان دأب أحد المسيحيين أن يأتي كل أسبوعين أو كل شهر مثلاً، ويقدّم لكل صفّار كتاباً وربما كان الكتاب مجلّداً ضخماً بقيمة دينار كامل، وعندما كان المبشّر المسيحي يخرج من السوق، كان الصفّارون يلقون الكتب في النار (في الكورة التي يستخدمونها لأعمالهم، حيث إنّهم يعلمون أنّها كتب منحرفة).

يقول الأخ: فكّرت ذات مرّة أن أقول للمسيحي واقع الحال حتّى يمتنع عن الاستمرار في توزيع الكتب، وبالفعل عندما جاء ووزّع الكتب وأراد الذهاب تبعته وقلت له: إنّك تعلم أيّها المبشّر المسيحي إنّ هؤلاء مسلمون وهم يحرقون هذه الكتب التي تعطيها لهم، فلماذا تفعل

---

(١٢٦) كانت القيمة الشرائية للدينار الواحد آنذاك ما يعادل ألف خبزة تقريباً.

ذلك إذ أنّها جهود لا طائل فيها ولا ثمرة لها؟

قال: فتبسّم المسيحي وقال: إنّي أعلم ذلك منذ اليوم الأول لأنّي رأيت بطرف عيني إحراقهم للكتب!!

فقلت له: إذن ما الداعي لما تفعل؟

قال: صحيح إنّ هؤلاء يحرقون الكتب ولكن ربما لا يحرق أحدهم الكتاب، فيذهب به إلى داره فيقع الكتاب في يد ابنه أو ابنته، فيطالعه أو تطالعه، وربما يؤثّر عليهما ولو جزئياً، وهذا ربح لنا!!.

هكذا يضحّون بالمال والأتعاب والطاقات في سبيل تحريف شخص واحد!؟

هؤلاء يعملون هكذا.

أمّا نحن فإنّنا لم نستطع تثقيف حتى شبابنا وفتياتنا وهذا هو سبب تأخّرنا، ولذا تجد الكثير من المسلمين لا يعرفون شيئاً عن الفكر الإسلامي: في السياسة والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والإدارة والأسرة وغيرها من تعاليم الإسلام، كما لا يعرفون شيئاً عن كيفية عمل المستعمرين في بلادنا وأساليبهم وخططهم، ولايعرفون كيف يواجهونهم ويسدّون الطريق عليهم.

محاربة الكتب المفيدة

كنت في العراق مهتّماً بإرشاد الناس وتوعيتهم ليعرفوا ما يدور وراء الكواليس من خطط استعمارية، علّهم يشعرون بالحالة المتردّية للمسلمين، وبهذا الصدد كنت أنشر الكتب التي توضّح هذه الحقيقة، مثل كتاب «التبشير والاستعمار» وكتاب «مذكرات الداكوركي» وكتاب «مذكرات مستر همفر» وكتاب «بروتوكولات حكماء صهيون»، وصرفت بعض اهتمامي لطبع الكتاب الأخير، وبعد أن نشرناه في المكتبات نفذ بسرعة ممّا أثار تعجّبي، كيف ينفذ هذا الكتاب بهذه السرعة؟

وأوعزت لطبعه ثانية، وبعد أقلّ من شهر نفذ أيضاً.

وفي مرّة ثالثة طبعته ووزّعته على المكتبات، ثمّ بعد أسبوع من ذلك جاءني شاب مثقّف فأرشدته إلى شراء هذا الكتاب، وبعد أن ذهب رجع وقال: قد بحثت في المكتبات فلم أجد منه نسخة واحدة.

فتعجبت كثيراً وتحقّقت بنفسي في الأمر، كيف ينفد الكتاب بهذه السرعة في مدّة قصيرة، وأخيراً اكتشفت إنه كلّما طبع الكتاب جاء البعض إلى المكتبات ليشتروا جميع النسخ، وبالقرائن عرفت أنّهم عملاء اليهود، فإنّ اليهود وإن تركوا العراق وغيره من البلدان الإسلامية بعد اغتصاب فلسطين لكن أبقوا عملاءهم من أجل تنفيذ أمثال هذه الأُمور، ثمّ بعد ذلك منعت رقابة السلطة في العراق هذا الكتاب.

هكذا يسعى عملاء الغرب جاهدين لإبعاد المسلمين عن ثقافة الحياة.

خاتمة

واجبنا تجاه الكتاب

في ختام هذا الكتاب لا بأس أن نشير إلى بعض المسؤوليات المهمّة على عاتق المؤمنين الكرام تجاه الكتاب الذي ينبغي لهم أن يستخدموه كسلاح ناجح في مقاومة عدوّهم اللدود المتمثّل بالجهل، علّهم يعيدون مجدهم الأول الذي شيّده آباؤهم في العهود السابقة.

التشويق على نشر الكتب

١: نشر الكتب والحث عليه.

من عادتي المستمرّة أنّني أشوّق كل من التقي به على الكتابة والتأليف، وطبع الكتب الإسلامية المفيدة ونشرها، لكي ينتشر الوعي الديني وتحفظ الأجيال المسلمة من الانحراف.

ومن فضل الله تعالى أنّ كثيراً منهم استجابوا لنصائحي وعملوا بها، فلمّا كنّا في مدينة كربلاء المقدّسة شوّقت بعض الأخوة وساعدتهم ففتحنا أول مكتبة أهلية عامّة لأجل المطالعة في المدرسة الهندية الكبرى، وقد سمّيناها بـ «المكتبة الجعفرية».

كما أصدرنا مجلّة تجيب على كافّة الأسئلة الإسلامية التي ترد إليها، وسمّيت المجلّة باسم (أجوبة المسائل الدينية).

وهكذا مجلات أخرى عديدة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد أسّسنا مؤسّسة (طبع ونشر الكتب الدينية) وكان لها من الفروع أكثر من سبعين فرعاً.

فضلاً عن سائر المشاريع الثقافية والمؤسسات التوعوية التي قامت على أكتاف المؤمنين الأخيار الذين كنّا نشوّقهم إلى خدمة الدين ونشر فكر أهل البيت عليهم السلام.

ولا يخفى أنه فقد واجهنا في ذلك الكثير من المضايقات حتى من بعض الشيعة، فضلاً عن الحكومات التي بقيت تطاردنا وتزاحم أصدقاءنا إلى أن اعتقلت بعضهم وسجنتهم

وعذبتهم، حتى اضطررت إلى الخروج من وطني مقهوراً [١٢٧].

(١٢٧) أشار سماحة الإمام الراحل قدس سره إلى مقتطفات من هذه المضايقات في مقدّمة كتابه «مباحثات مع الشيوعيين» فقال: وبالمناسبة فلا بأس أن أشير في مقدّمة هذا البحث إلى التهم التي تلقّيتها .. في الجملة مع تحفّظي على نظافة الكلام فإنّي لا أريد أن أجرح أحداً، ولذا تماسكت عن ذكر الأسماء وبعض الخصوصيات التي ربما تكون مؤشّرة إلى ما يوجب الجرح.

ذات مرّة اجتمعنا عدّة من الأصدقاء لتأسيس مكتبة في المدرسة الهندية في كربلاء المقدّسة باسم المكتبة الجعفرية، فقالوا: إنّهم يريدون استملاك كتب الناس بهذه الحجّة، وقالوا: إنّ هذا العمل هدم لموازين أهل العلم.

واجتمعنا لإخراج مجلّة (أجوبة المسائل الدينية) فقالوا: إنّهم شكّلوا لجنة (سلوني قبل أن تفقدوني) وقالوا: هذا فضح لرجال الدين لأنّ المثقفين يستشكلون إشكالات تعجزون عن الجواب عنها. وذلك يسبّب فشل الدين ورجال الدين.

ولما أن قررنا تأسيس (الجمعية الخيرية الإسلامية) قالوا: هذا هدم لحوزة الطلبة في كربلاء لأنه يسبّب جرّ أهل العلم إلى التجدّد.

وحين اشتركنا لتأسيس (مطبعة أهل البيت عليهم السلام) قالوا: إنّ هذا العمل يوجب تسليط الفسّاق على المتديّنين حيث إنّ المطبعة توجب تحرّك الأقلام المنحرفة.

ولما أن طبعت (وسائل الشيعة ومستدركاتها) قالوا: هذا هدم للتشيّع لأنّ المستدرك كلّه ضعيف، وقد تعب علماء الشيعة لإخراج الضعاف عن منهج التشيّع فهذا إرجاع إلى الوراء.

ولما طبعت كتاب (هكذا الشيعة)، قالوا: هذا تفرقة وطائفية.

ولما طبعت كتاب (مقالات) قالوا: نفران أفسدا العراق (عبد الكريم قاسم) بثورته و(محمّد) بتأليفه المقالات.

ولما طبعت كتاب (الفقه) قالوا ليس له.

وحين خرج كتاب لي في الأحاديث، قالوا إنه تأليف والده لكنّه لم يرد أن ينسبه إلى نفسه فنسبه إلى ابنه.

ولما أخرجنا مجلّة (الأخلاق والآداب)، وكان في عدد من أعدادها تهجماً على الاستعمار قرّر (نوري السعيد) غلق المجلّة، وسجن القائمين بها ثلاثة أشهر.

ولما أخرجنا (المنشورات الدورية) في المناسبات الدينية، قالوا: إنّها تموّل من (دولارات أمريكية).

ولما كتبت مقالاً ضدّ الشيوعية في مجلّة (رسالة الشرق) الكربلائية قالوا: إنّها تموّل من (النقطة الرابعة) وقد أقاموا الدنيا وأقعدوها ضدّ المجلّة وضدّي وضدّ المشتركين في تحرير المجلّة.

دعم الكتب

٢: ليس هناك شك أنّ نشر الكتب وترويجها في مختلف أنحاء العالم يحتاج إلى ميزانية ضخمة تستوعب قدر الكتب المراد طبعها.

وحيث إنّ المسلمين يحتاجون إلى ثلاثة مليارات من الكتب على الأقل، فإنّ طبع هكذا حجم من الكتب يستدعي تأسيس هيئات ومنظّمات عالمية تدرس هذه المسؤولية بجدّية وتضع الخطط اللازمة لها علّها تصل إلى بعض الحلول المفيدة في ذلك.

كما ينبغي على المثقفين منا أن يحرّكوا الآخرين وينشروا هذه الفكرة بين أوساطهم موضّحين مدى أهمية الكتاب ودوره الحسّاس في نشر الوعي بين الشعوب المسلمة التي أصبحت في أشدّ الفقر من الناحية الثقافية.

بالطبع فإنّ من يتصدّى لمثل هذه المشاريع سيلاقي الكثير من المضايقات إلاّ أنه بعد التوكّل على الله تعالى والتوسّل الشديد بأهل البيت عليهم السلام سيجد أنّ الأمر غير مستحيل وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «قدر الرجل على قدر همّته»[١٢٨].

وقال عليه السلام: «من طلب شيئاً ناله أو بعضه»[١٢٩].

وقد شاهدت كيف أنّ البعض كان يدعم الكتب وذلك لما كنّا نشتري الكتب الدينية المطبوعة في القاهرة بثلث الثمن، فسألت عن البائع وهو السيد سعيد الزيني[١٣٠] من أين

ولما أن اشتركنا في تأسيس مؤسّسة (النشر الإسلامي) قالوا: كل الناس يعرفون الإسلام والتشيّع فما الداعي إلى صرف الوقت والمال في أمثال هذه الأمور.

ولما أن كتبنا أي كتاب قالوا ما فائدة هذا الكتاب (فالوصول) لا يحتاج إليه لأنّ الكفاية في غنى بسبب حواشيها عن الوصول و (الجواهر) لم يدع مجالاً (للفقه) وشرح (العلاّمة على التجريد) أغنى الناس عن (القول السديد) وهكذا وهلم جرّا.

ولما أسّسنا المكتبات، قالوا أوجد القرّاء فما فائدة المكتبات بلا قرّاء (وعند الشيخ كتب من أبيه) (مسطّرة ولكن ما قراها).

(١٢٨) نهج البلاغة: قصار الحكم ٤٧.

(١٢٩) نهج البلاغة: قصار الحكم ٣٨٦.

(١٣٠) السيّد سعيد أحمد بن السيد جعفر السيد حسين زيني، ينتمي إلى أُسرة معروفة بالفضل، يعود نسبه إلى الإمام الحسن بن علي عليه السلام كتبي مشهور، له مشاعر طيبة وروح لطيفة محمود السيرة،

هذه الكتب بهذا الرخص؟

قال: في القاهرة وقّف ثري ثلثه من أجل رخّص الكتاب، والشيك موجود في المصرف، فالطابع يأخذ الثلثين من الوقف المذكور ويبيع الكتاب بالثلث.

الكتب الجيبية

٣: كما ينبغي للمؤمنين الكرام أن يركّزوا على الكراريس الصغيرة فهي سريعة الانتشار، وسهلة المطالعة، وقليلة التكلفة، وسهلة الحمل.

ولعلّ الحكمة في توزيع القرآن الكريم إلى سور صغيرة هو رغبة الناس في مطالعة القطع الصغيرة التي تنتهي بسرعة، وإلاّ فلو كان القرآن كلّه متصل على نسق واحد ربما لم يكن لقراءته هذا الشوق عند عامّة الناس.

وقد دعت اليهود كما في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) إلى ضرورة جعل الضريبة على مثل هذه الكتب لأهميتها وخطورتها.

فهذه الكتب ك «السندويشة» التي يسهل تناولها.

وقد نقل لي أحد الأصدقاء الذين سافروا إلى أوروبا: أنّ من عادة المجتمع الأوربي صرف أوقاتهم في المطالعة، فتجدهم وهم في القطارات أو الحدائق أو في عيادات الأطباء أو في أي مكان عام وبأيديهم كتب صغيرة يطالعون فيها.

إنّ لمثل هذه الكتب دورها وتأثيرها الخاص على ذهن الإنسان حتّى لو نسي ما قرأه، فإنه يبقى تموجات ذلك في لا وعيه، وذلك الأثر المنتقل إلى اللاّوعي هو الذي يسير بحياة الإنسان نحو ذلك الاتّجاه ولو نسبياً.

فمثلاً إذا عقدت مجلساً حسينياً في بيتك أو في المسجد تستطيع أن توزّع في اليوم الأخير عدداً من الكتب الصغيرة، فإنّ تكاليف طباعتها قليلة بالقياس إلى الكتب الكبيرة، فإذا اعتاد أصحاب المجالس على توزيع الكتب خصوصاً في مواسم التبليغ تصبح الفائدة أكثر، وربما غيّرت مجرى الأُمم في مدّة عقد من الزمان أو أقل، وما ذلك على الله بعزيز.

وكان سياسياً واعياً وله علاقات مع بعض السياسيين وكان في نفس الوقت وكيلاً للسيد الحكيم ومن ثم وكيلاً للسيد الخوئي (قدّس سرّهما) في مدينة كربلاء المقدّسة.

الحثّ على الكتابة

٤: من الأُمور المهمّة الحري بالمسلمين أن يدعوا إليها ويحثّوا عليها هي الكتابة والانشغال بالتأليف في شتّى المجالات المفيدة.

فإذا تواصى المسلمون بالكتابة وتعاهدوها فيما بينهم فإنّ الكثير من الكفاءات والقدرات المغمورة ستظهر وهذا ما شاهدته شخصياً في حياتي.

فقد دعوت الكثير من الناس إلى التأليف فكانوا يعتذرون بأعذار غير مقبولة إلاّ أنّهم بعد تأكيدنا عليهم وتشويقنا إيّاهم أصبحوا من الكتّاب الجيدين(١٣١).

وفي الحقيقة أنّ المسلمين إذا حثّوا على التأليف والكتابة يكونون قد اقتدوا بأئمتهم الطاهرين عليهم السلام الذين أكّدوا في أحاديثهم الشريفة على الكتابة وأوصوا أصحابهم ومحبّيهم بها وقد مر بعض تلك الأحاديث.

تأسيس المكتبات

٥: ومن الجدير بالمسلمين اليوم وهم يواجهون الحرب الثقافية على مختلف أنواعها أن يهتّموا بالمكتبات الضخمة التي تحفظ لهم الكتب وتحتضن القرّاء وتزوّدهم بالثقافة اللازمة.

من جانب آخر من المفترض أن يكون لهذه المكتبات مراسلين وموظفين يغتنمون لها الكتب الجديدة من مختلف أنحاء العالم ويزوّدونها بالإصدارات الحديثة في شتّى العلوم.

ومن الضروري أن تضم هذه المكتبات مختلف الكتب وبلغاتها المتعدّدة ليستفيد منها الجميع وليس أهل لغة خاصّة.

بطبيعة الحال أنّ تأسيس مكتبات كهذه يحتاج إلى جهود جبّارة وطاقات كثيرة إلاّ أنّ الناس إذا أحسّوا بالمسؤولية وعملوا بوظيفتهم الشرعية سيكون إنشاء هذه المكتبات غير صعب.

إحياء الكتب

---

(١٣١) وقد أحصى بعض المهتمين الكتب التي ألفت ببركة حث الإمام الشيرازي رحمه الله وتأكيده فتجاوزت الخمسة آلاف عنوان.

٦: كما ينبغي للمسلمين الذين بلغ عددهم مليارى مسلم أن يشكّلوا الهيئات والمؤسسات الضخمة التي تتكفّل بإحياء الكتب المفيدة التي نساها الناس أو لم تخرج إلى النور، فيجدّدون طباعتها ويعيدون إعدادها وتحقيقها ليستفيد منها القرّاء في العالم.

علماً أنّ مثل هذه المؤسسات تحتاج إلى أفراد يجوبون العالم بحثاً عن الكتب المفيدة التي ضاعت من أيدي الناس مخطوطة كانت أو مطبوعة، ثم يرسلونها إلى المؤسسات التحقيقية والمطبعات لتعاد طباعتها من جديد.

فإنّ الكثير من الكتب لا توجد في متناول الأيدي، وأصبحت مجهولة عند الناس مع حاجتهم الشديدة إليها، وإلاّ ماذا يعني أنّ العلاّمة الحلّي والمجلسي (قدس سرهما) لهما من المؤلّفات ما يقارب الألف كتاب ولم يصلنا إلاّ القليل منها مع علمنا بفائدة كتبهما وحاجة الناس إلى أمثال هذه المؤلّفات؟

بالطبع هناك الكثير من مؤلّفات علمائنا الأعلام بقيت مخطوطة ولم يهتمّ بها أحد حتّى ضاعت وتلفت وحرم المسلمون من الاستفادة منها، لذلك فإنّ الخدمة التي تقوم بها هذه المؤسسات هي في غاية الأهمية.

نسأل الله عزوجل أن يوفقنا للاهتمام بهذا الجانب فإن الكتاب دعامة الحياة.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

الفهرس

كلمة الناشر ٢
المقدمة..... ٤
الكتاب في القرآن الكريم..... ٦
معجزة الرسالات المختلفة..... ٦
حجّية الكتاب..... ٧
الإسلام والحث على الكتابة..... ٩
الكتاب في الأخبار الشريفة ١١
الدعوة إلى الكتابة..... ١٢
حقائق عن مداد العلماء..... ١٤
الكتاب في تاريخ الشيعة..... ١٧
من فوائد الكتاب..... ١٨
نشر الفكر..... ١٨
حفظ التراث..... ١٩
الأجر والثواب..... ٢٠
مع صاحب المستدرك ٢٠
رؤيا الإمام الحسين عليه السلام..... ٢١
هداية الآخرين..... ٢١
تضحيات من أجل الكتاب..... ٢٣
من بركات الكتاب..... ٢٤
من فوائد الكتاب..... ٢٥
تأثير كتاب (المراجعات) ٢٥
معاناة من أجل الكتاب ٢٧
نبذة حول المكتبات الإسلامية..... ٢٩
إتلاف المكتبات..... ٣١
تراث أهل البيت عليهم السلام..... ٣٣
إنهم يحاربون الكتاب ٣٥

الرقابة الجائرة ٣٥
لا للرقابة..... ٤٠
لماذا تقدّم الآخرون؟..... ٤٢
بين المسلمين والغربيين..... ٤٤
كتاب (ماذا في كتب النصارى) ٤٤
دول الغرب لا تستطيع منع الكتاب..... ٤٥
الكتاب دعامة التقدّم ٤٧
ثروات المسلمين .. إلى أين؟ ٤٨
الساعة المثالية ٤٩
محرّك بلا وقود ٤٩
طب الأعشاب والعقاقير..... ٥٠
الباكستان عندما انفصلت عن الهند..... ٥٠
الكتاب وإحياء التراث..... ٥٣
نذر أن يكتب تفسيراً ٥٣
مع العلامة الحلي قدس سره ٥٤
مع صاحب الجواهر قدس سره..... ٥٤
استقامة في طلب العلم..... ٥٦
الكتابة تحت ضوء القمر..... ٥٧
الكتابة في ساحات الجهاد..... ٥٧
كتابة التفسير حتى في الحرب..... ٥٩
مع مؤلّف كتاب إظهار الحقّ..... ٥٩
مع المحدث القمي قدس سره..... ٦٠
وقفة أُخرى مع القمّي قدس سره..... ٦١
الحرب الثقافية ٦١
كيف نشروا المسيحية؟ ٦٢
من أنشطة الوهّابيين..... ٦٢
هكذا يروجون كتبهم..... ٦٣
حملات التنصير في بنغلادش..... ٦٣
من أساليب التبليغ..... ٦٤

تبليغ بالإجبار ٦٤
التبشير إلى المسيحية..... ٦٤
محاربة الكتب المفيدة ٦٦
خاتمة: واجبنا تجاه الكتاب..... ٦٧
التشويق على نشر الكتب ٦٧
دعم الكتب..... ٦٩
الكتب الجيبية ٧٠
الحثّ على الكتابة ٧١
تأسيس المكتبات ٧١
إحياء الكتب..... ٧١
الفهرس..... ٧٣